

القسم الأول

ما هي الفلسفة

الفصل الأول

يقظة العقل البشرى

تمثل حياة الشعوب القديمة والبدائية الخطوة الأولى في حركة الانسانية نحو الحضارة والمدنية كما تمد عناصر هذه الحياة من صناعات ونظم وديانات البذور الأولى للمدنية الملمية في صورتها الزاهية الحاضرة .

وقد عثر المؤرخون وعلماء الانسان لدى تلك الشعوب على ديانات مختلفة الصور يحمل بعضها طابع السذاجة والطفولة العقلية ويبدو على بعضها سمات الرقى والسمو الفكرى بدرجات متفاوتة .

وتتعرض هذه الديانات غالباً لتفسير الكون وتذهب في ذلك مذاهب شتى ولكنها بوجه عام تنزع إلى اعتبار الوجود نتيجة لعملية تاريخية كبرى تبدأ بأصل مشترك وتنتهى إلى تكوين الأرض والسماء ، والماء والنبات ، والحيوان والإنسان .

فالبابليون مثلاً يرون أن أصل الكون الماء ففي البدء قبل أن تسمى السماء وأن يعرف للأرض اسم كان المحيط وكان البحر ، وكانت مياها مختلطة فصنعها الآلهة ، وفصل أحد الآلهة للمياه فجعل المياه العليا والمياه السفلى ، وركب في السماء النجوم والسيارات ، والقمر والشمس ، ثم صنع البشر من دمه ، وخرجت صنوف الحيوان من البحر .

وتفسر مدرسة عين شمس المصرية ظهور الكون بأسلوب مشابه ففي البدء

كان المحيط المظلم أو الماء الأول حيث كان الإله الأول في وحدته ثم صنع الآلهة واشترك هؤلاء في صنع العالم .

وتتضمن قصائد هوميروس وهز يود التفسير اليوناني . وهذا التفسير يثبت الآلهة كغيره من تفسيرات الشعوب الأولى . ولكن آلهة الإغريق يختلفون عن آلهة الشعوب الأخرى في مدى قدرتهم . فهم إلى البشر أدنى منهم إلى الآلهة . ويعيشون في قمة جبل الالاب في صور بشرية وحياتهم كحياة البشر فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون وفيهم شهوات ولهم نقائص ولكنهم أذكى من الانسان عقلا ، وأقوى جسوما .

والآلهة كما يصورهم هوميروس يختلفون في صلتهم بالكون عن آلهة الشعوب الشرقية المعاصرة فهو مير لا يعزو إليهم خلق الكون مع أنه المهمة الكبرى التي يعزوها إليهم الدين البابلي وغيره . بل الواقع أنه لم يحاول تحليل الخليفة ولا تفسير نشوء الكون ، أما هز يود فقد حاول شيئاً شبيهاً بهذا في قصيدته المسماة « بأصل الآلهة » فقد صعد فيها إلى البدء وشرع يبين تسلسل الآلهة والأشياء في ترتيب ونظام متسق .

وتتلقى الشعوب الأولى عقائدها عادة بالتسليم مهما بلغت غرابتها وشذوذها وما كان لشعوب مشغولة بالبحث عن الطعام والنضال ضد الطبيعة أن تسلك غير هذا المسلك ، وبخاصة إذا كان الذكاء الفطري فيها لم يصل بعد إلى مستو عال وما هو إلا أن ينضج الذكاء وتظهر حياة الفراغ ويتصل الشعب بمن جاوره من الشعوب ويطلع على ثقافتها المختلفة حتى يدب ديب الشك في تلك العقائد الموروثة الساذجة ويتداعى بنيانها في نفوس الطبقة المثقفة على الأقل .

وبانهيار هذه العقائد يتغير الحال ويجد الجديد . فقد كانت هذه العقائد

حاولا لمعضلة الـكون يستمد منها الانسان إيمانه ، ويجد فيها راحته العقلية فاذا تداعى بنياتها عاد الوجود كما كان معضلة كبرى تحتاج إلى حل جديد .

وفي مثل هذا الظرف ولدت الفلسفة في بلاد اليونان

ففي القرن السادس قبل الميلاد في مدينة ملطية من إقليم يونيه بآسيا الصغرى كان يقيم رجل ثرى مثقف يعيش عيشة الأثرياء المثقفين وهو طاليس الشهير في تاريخ الفكر الانساني . وأكبر الظن أنه بدأ حياته كما بدأ غيره من معاصريه مؤمناً بالموروث من عقائد قومه وتقاليدهم . ومهما يكن من شيء فلا شك أنه قد عرف دين قومه وثقافتهم . فقد كان اليونان حراساً على تنشئة أبنائهم على دراسة شعر هوميرو وهزويود . وطبيعي أن يمر به حين من الدهر يتلقى فيه كل ذلك بالقبول ولكن طاليس قد مرت به بعد ذلك تجارب أثرت في تفكيره تأثيراً عميقاً . فقد قدر له أن يرى شعوباً أخرى تختلف عن قومه في العقائد والنظم والآداب ، فقد زار مصر وغيرها من الممالك ، وتدل الدلائل على أنه اهتم بالثقافات التي رآها في مصر وغير مصر ، ففكر فيها واقتبس منها . فلنا إذن أن نتوقع ما يحدث عادة عند التقاء الثقافات المختلفة في العقول الممتازة بالذكاء والقوة وأول ذلك فترة شك يعقبها دور تحرير وتفكير .

ونظرة واحدة إلى فلسفة طاليس تكفي لاكتشاف ما حدث . فقد اتجه بجهوده الفكرية إلى دراسة معضلة الـكون محاولاً أن يجد لها تفسيراً معقولاً يبين مادته الأولى وكيف نشأ منها عالم مليء بالكائنات المتنوعة من هواء وماء وأرض ونبات وحيوان .

وغنى عن البيان أن هذه عملية لا يقوم بها رجل لا يزال يؤمن بالموروث من عقائد قومه وآدابهم فلنا إذن أن نقدر مطمئنين إلى صحة التقدير أن طاليس

حينما بدأ يفكر في حل المعضلة الكونية لم يكن يرى أن في دين قومه بياناً مقبولاً لها وأنه كان إذ ذاك يمر بفترة شك .

والجديد من الأمر والطريف في الموقف أن طاليس لم يلجأ إلى الدين ورجال الدين يستعين بهم على التغلب على صعوبته ، بل استخدم العقل وحده في البحث عن الحل المنشود ، وهذه هي رسالته الكبرى التي وضعت أساس الفلسفة والعلم .

شرع طاليس يفكر فيما أمامه ويسأل نفسه ما هذا الكون العجيب ؟ ما هذه الصور المتعددة من ماء وهواء ونار وأرض ؟ هل اشتقت جميعاً من مادة واحدة ؟ وما هي هذه المادة الأولى ؟ وكيف تحولت إلى تلك الصور المختلفة ؟ وما هي العوامل المسؤولة عن هذا التحول ؟

وليس في مقدورنا أن نترسم الأدوار التي صرّ بها تفكيره ، ولكننا نعرف أن تفكيره قد قاده إلى أن كل شيء في الكون ماء . وأن الماء هو مادة الوجود الأولى ، أما الهواء والتراب والنار فصور طارئة يتحول إليها الماء . وهذه الفكرة وليدة عدة ملاحظات عادية كتبخّر الماء من ناحية وتحوله إلى جمد من الناحية الأخرى . ثم نجىء ملاحظة أخرى مألوفة ، وهي تراكم الطين عند مصاب الأنهار . فهذه كلها ظواهر قد توحى إلى من يتأملها أن الماء يتحول إلى أرض صرّة وإلى هواء صرّة أخرى . هذا إلى أنه من الواضح أن الماء يدخل في تركيب النبات والحيوان ، وأنه لا بقاء لواحد منهما بدونه .

ولم ير طاليس في تحول الماء إلى هواء وأرض ، وكل شيء آخر إلا عملية طبيعية بحتة ، وهذه نظرة علمية إلى مجرى الحوادث الكونية .

والواقع أن طاليس وفلاسفة يونيه كانوا يرون أن المادة حية تتحرك بذاتها ، وأن مصدر حركتها ليس أمراً خارجاً عنها ، بل الحركة خاصة من خواصها الطبيعية وقد أغناهم هذا عن الاستماعة في تعليل الوجود بالأرواح والآلهة .

و بعد أن وضع طاليس هذه الأصول العامة فسر النظام الكوني تفسيراً طريفاً : فالأرض قرص مسطح طاف على سطح الماء ، وفوق رؤسنا أيضاً ماء وإلا فمن أين يأتي المطر ، أما الشمس والقمر والنجوم فبخار ملتهب .

وحصل طاليس إلى هذه النتائج بالنظر العقلي ، وهو يقدمها على أساس أنها رأيه هو ، وأن دعائمها الأدلة وحدها فمن شاء أن يقبلها إذا صحت عنده الأدلة ولمن شاء أن يرفضها غير متحرج إذا لم تصح .

ولم تلبث هذه الروح الجديدة أن انتقلت من طاليس إلى تلميذه انكسمندر فتقدم لعلاج هذه المعضلة الكبرى على منهج أستاذه وبمثل شجاعته الأدبية . والرائع في الموقف أنه لم ير نفسه مضطراً إلى قبول آراء طاليس ، ولم يستخلص من ذلك التراث سوى منهج البحث وروح النظر الحر .

فقد وضع نظرية جديدة ناقض فيها أستاذه في الكثير من أصوله ونتائجه دون تردد أو مواربة ، ولو أنه خضع لئزعة التقليد لانطفأت هذه الشعلة الإنسانية في الساعات الأولى من حياتها .

لم يقر انكسمندر أستاذه طاليس على أن المسادة الأولى هي الماء حينما نهضت لديه الدلائل على ضعف هذه الفكرة ، وذهب إلى أن المسادة الأولى ليست عنصراً من العناصر الأربعة المألوفة ، ولكنها شيء مبهم في نوعه غير محدود في مقداره سماه غير المحدود ، وعنه صدر كل ما في الكون ومنه تكون كل

موجود بحركتي انفصال واجتماع طبيعيتين . ثم مضى يصف في تفصيل شائق كيف أدى ذلك إلى ظهور ما في الوجود من كائنات . وهو وصف يدل على ثقة بالمثل واطمئنان إلى نتائجهما أبعد في سيره وأغرب في تأويله .

يرى انكسندر أن الأضداد كانت في البدء تجتمع في هذه المادة الأولى مختلطة متعاكلة . ففيها كان يلتقي الحار والبارد والرطب واليابس ثم انفصلت بحركة انفصال طبيعية واجتمع بعضها إلى بعض بمقادير متفاوتة ، فتكونت بذلك الأشياء ثم أخذ في تفصيل هذه النشأة ، فيقول : إن العناصر الأربعة التي يتكون منها الوجود كانت متجمعة طبقات بعضها فوق بعض . فكانت الأرض تحتل المركز ، لأنها أثقل الجميع وكان الماء يغطيها ويملأه البخار . أما النار فكانت تحيط بالجميع . فأدت حرارة النار إلى تبخر الماء فظهرت اليابسة وتكاثر البخار ، فاشتد ضغطه فتمزق المحيط الناري وتناثرت أجزاؤه ، فأحاطت بها إسطوانات هوائية . فتكونت بذلك الكواكب ، فهي تلك النار التي تشتعل في جوف الأنابيب وتبسمون فوهاتها . وما نراه من كسوف وخسوف ، ومن أوجه القمر سببه إما انسداد تلك الفوهات إنسداداً كلياً أو جزئياً ، أو توارى الفوهة عن الأنظار بسبب حركة الأبرية الدائمة .

أما الأحياء : فقد تولدت في طين البحر ، وهو مزاج من التراب والماء والهواء ، وكانت في البدء مغطى بقشر شائك ثم انتقل بعضه إلى اليابسة ونفض عن نفسه القشر ، والإنسان أيضاً سليل حيوانات مائية مختلفة عنه في النوع حملته هي بطونها إلى أن تم تكوينه ، فاستطاع أن ينتقل إلى اليابسة ويعيش فوقها .

هذه الصورة التي تمثل نشأة الكون في رأي انكسمندر ، وهي صورة رائعة جريئة .

وإذا كانت روح البحث الحر والاستقلال من الموروث قد تملك طاليس ثم انتقلت منه إلى انكسمندر فإنها قد جاءت لتبقى وتنتقل من باحث لباحث . والواقع أن الذي حفظ شملة البحث متقدة ، هو أن أولئك الباحثين لم يرثوا آراء ومذاهب ، وإنما ورثوا ما هو خير من ذلك ، ورثوا الاستقلال وحرية الفكر والاعتداد بالنفس . وإذا كان انكسمندر قد رفض مذهب أستاذه طاليس وأقدم على وضع مذهب جديد ، فإن تلميذه انكسيانس قد سلك الطريق نفسه فرفض مذهبه وأنشأ مذهباً جديداً .

ذهب انكسيانس إلى أن المادة الأولى ليست كما رأى طاليس ، ولا غير المحدود كما قدر انكسمندر ، ولكنها الهواء ، وقد اعتمد في ذلك على أدلة يقدر مؤرخوا الفلسفة أنها ربما كانت ما رآه من أن الهواء أطف من الماء ، وأنه أسرع حركة وأكثر في الأفق انتشاراً .

وتظهر عبقريته في تفسير تحول الهواء إلى ماء وأرض ونار ، فهو يلجأ في ذلك إلى فكرتي التخلخل والتكاثف ، فإذا تكاثف الهواء تولد السحاب فالطر وإذا تكاثف الماء تكون التراب ، أما إذا تخلخل الهواء ، فالنار نتيجة هذا التخلخل .

هذه صفحة قصيرة رائعة تمثل الجو الجديد الذي تقصد الحديث عنه فقد كان جديداً أن نرى جو التقليد القائم يتحطم مرة واحدة ويتحرك العقل في رهوس بعض الأفراد ويتقدم معتزلاً بنفسه على دراسة الكون وتفسيره فيمتلئ

الجور بالفروض الفلسفية المختلفة في تحديد المادة الأولى ، وكيف انشبت منها الكائنات على اختلاف أنواعها ، وفي تفسير النظام الفلكي ، وظهور عالم الحياة وانتقاله من الماء إلى اليابسة ، وكلها نتائج لا تمتاز بغير قوة الدليل ، ولا ترجع إلى سند سوى البرهان ، وأروع من كل ذلك أن يعتصم كل مفكر إزاء غيره بالاستقلال التام في مخالفته ويناقضه وينتهي إلى غير نتائجه غير مبال أو متهيب .

ونظرة عجيلى إلى سير هذا التاريخ ترىنا كيف استمرت هذه اليقظة الفكرية فتناهت البحوث الفلسفية وظهرت سلسلة من كبار الفلاسفة الذين امتازوا بالاستقلال الفكرى والثقة بالنفس ، أمثال : هيرقليطس ، وأنكزاجوس ، وديموقريطس ، وبارمنيدس ، وزينو افيشاغورس ، ثم ظهرت تلك الشخصيات الخالدة الجبارة : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، فسلكوا طريق البحث الحر الذى اكتشفه طاليس وذلك انكسندر وانكسيانس وتماورا جوانب الكون دراسة وتنقيبا وأورثوا العالم العلوم والفلسفة اليونانية التى قامت فى تاريخ الإنسان فى الشرق والغرب بدور خطير خالده .

ثم توارت تلك الفلسفة والمعلوم حينما من الدهر ولكن لتمود إلى الظهور ويعود معها الاستقلال فى البحث والحرية الفكرية التى لازمتها فى اليونان القديمة وقد أخذ البحث الفكرى الجديد الذى بدأ فى عصر النهضة صورة جديدة فقسم العلماء الوجود مناطق واختصت كل طائفة منهم بمنطقة وعكف الجميع على البحث العلمى المنصل مستخدمين فى بحوثهم هذه أسلوبا جديدا لم تكن اليونان توليه ثقها أو تركز إليه فى دراستها ، فبدلا من أن يستلقوا فى كرامتهم يفكرون على هيئتهم فى النظام الفلكى والطبى نجد العلماء فى مطام فجر النهضة يذهبون إلى الطبيعة ويقفون أمامها محاولين أن يلمحوا من ثناياها خفى أسرارها

وغامض نواميسها بل نجدهم قد اخترعوا المجاهر وأحكموا وضعها فوق عيونهم
وصوبوها إلى النظام الشمسي ليروا رأى العين كيف تتكون نجومه وكيف تسير
في مجاريها كواكبها .

وقد كانت ثمرة هذا كله أن الكون الذي بدا للإنسان في أيامه الأولى لنزاً
غامضاً لا يسبر غوره ولا يبدو أن في مقدور العقل حله ، تغير حاله فأخذت نواميسه
تبدو تباعاً وينضم بعضها إلى بعض في مجموعات متعددة كونت المعلوم المختلفة التي
تصف في مجموعها نظام الكون وسير الحوادث فيه أو تحدد النظم السياسية
والاقتصادية التي يجب أن تحكم المجتمع وحياة الإنسان .

والخلاصة أن العالم لم يعرف التفكير في الكون بصورته المنظمة الدقيقة إلا
منذ أن ظهر طاليس . فبظهوره ظهر التفكير الفلسفي والعلمي . وقد زاوله في البداية
أشراف اليونان في ساعة فراغهم ، كما عنوا بتدريب أبنائهم على ممارسته . ولكنه
منذ عصر النهضة أخذ يتحول صناعة خاصة يتفرغ لمباشرتها طائفة من الناس
ويؤسس من أجلها دور خاصة . وواضح أن هذه الطائفة هي جماعة العلماء
والفلاسفة الذين وقفوا حياتهم على البحث العلمي والفلسفي ، وأن هذه الدور
هي الجامعات والمدارس المختلفة التي أنشئت لتدريب الناشئين على الدراسات
العملية والفلسفية .

ومهما يكن من شيء ، فظهور التفكير قد بدد الخرافات التي كانت تشوه صورة
الوجود في أذهان الناس . كما أنه قد وضع في يد البشر عدداً كبيراً من النواميس
الطبيعية التي مكنتهم من إستخدام القوى الطبيعية والإنتفاع بها في حياتهم المادية
وغير المادية . هذا إلى أنه استطاع أن يكشف للناس عن النظم الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية الصالحة لتشرئب أعناقهم إليها ويسير ركب البشرية متعجها نحوها فينجو من الأغلال والاصفاد التي يزرع تحتها ويشقى بها .
ونستطيع أن نسمى هذا الذي حدث في اليونان انقلابا وهو كالاتقلابات السياسية وليد عوامل متعددة . وإذا كانت الانقلابات السياسية تترك وراءها في حياة الأمم ، والشعوب مبادئ خالدة تصبح دعامة لحياتها الجديدة ، فهذا الانقلاب الفكري قد أورث البشرية مبدأ من أسس المبادئ ، وهو مبدأ التفكير الحر الذي وضع الأصول العلمية التي غيرت وجه الحياة الاقتصادية والصناعة كما وضع النظم السياسية والاجتماعية التي تعيش في ظلالها الشعوب الحاضرة ، سعيدة مقتبطة .

من أجل هذا كان لابد لنا من دراسة هذا الانقلاب الكبير كما يدرس المؤرخون الانقلابات السياسية الكبرى ، وتتضمن هذه الدراسة تحليل الموقف إلى عوامله الكبرى ثم دراسة كل عامل منها على حدة .

الفصل الثاني

طبيعة التفكير

ما هو الجديد في هذا كله؟ لا بد لنا في الجواب عن هذا السؤال من قدر كبير من الحيلة والتحرز. فليس الجديد عنصراً واحداً ولكنه عناصر متعددة بعضها واضح سافر وبعضها مغمور غامض. ومن ثم كان من الضروري أن ندرس هذا الجو الجديد دراسة صبر وأناة. حتى لا يفوتنا منه خفي خلفائه أو يستبد بالناية واضح لوضوحه.

وأول ما يبدو من معالم هذا الموقف المشتبك هو عملية التفكير التي قام بها طاليس وآنكسمندر وآنكسيمانس ومن جاء بعدهم، والتي انتهت بهم إلى تلك النظريات السكونية الطريفة وما كان لمثل هذه العملية أن تخفى وقد سجلت كتب تاريخ الفلاسفة ظروفها وعناصرها ونتائجها ولكن قد تخفى عوامل أخرى مما يرافق في العادة عملية التفكير أو يسبقها، كالمشك في الموروث والتحرر من السلطة الدينية والاجتماعية التي تفرض على كل فرد في المجتمع عقائد الشعب وشرائعه وآدابه، ففي كل مجتمع بشري سلطة من نوع ما تعضد عدداً من العقائد وتحمل الناس على قبولها والتسليم بها. وهي في العادة سلطة رهيبة أو قد كانت كذلك في العصور التاريخية القديمة حيث كان سيفها مصلتاً فوق الرقاب يلقي الرعب في قلب كل من تحدته نفسه بالمرء أو الانتفاض على العقائد المتوارثة والشرائع العامة، ولم تكن بلاد اليونان لعهد طاليس تختلف في ذلك كثيراً عن غيرها من ممالك

العهد القديم ، ومع ذلك فقد أقدم طاليس على عمالين مخوفين بالأخطار : أولها :
الشك في العقائد المتوارثة . وثانيهما : الانتقاص على هذه السلطة نفسها . فقد
كان الناس في تلك العصور يؤمنون بأن طريق المعرفة هو صدق أمام العقل البشرى
وأن هذه السلطة هي مصدر العلم والمعرفة . فرفض طاليس هذه الفكرة وذهب إلى
أن العقل البشرى قادر على أن يصل إلى الحقيقة في المعضلات الكونية والماهية
وغيرها مما ألفت الناس أن يتلقوا فيه وحى تلك السلطة وأوامرها . ولسنا نعلم
أنه قد وضع في هذا نظرية فلسفية دافع عنها ، ودعا الناس إليها ، وإنما نعلم
أن إعراضه عن تلك السلطة حينما ساوره الشك ، وإقدامه على التفكير يتضمن
بصورة قاطعة إيمانه بصحة هذا المبدأ وسلامته .

وليس هنا كل ما هنالك فان هذا الموقف ينطوي على مبادئ أخرى خطيرة
منها إيمانه بأن لكل فرد الحق في التفكير للوصول إلى الحقيقة في كل ما يترضه
من مشاكل نظرية وعملية . ومنها شهوره بأن الكون لا تسوده الفوضى ولكنه
يقوم على نظام دقيق شامل .

الموقف إذاً يتضمن عناصر كثيرة لا عنصراً واحداً فهو يتضمن :

- ١ — حالة الشك التي صبغت عملية التفكير .
- ٢ — ويتضمن رفض مبدأ الاعتماد على السلطة الخارجية في حل
المعضلات .
- ٣ — كما يتضمن الثقة بقدرة العقل على الكشف عن الحقيقة إذا أقدم
على البحث وأقبل على التفكير .
- ٤ — وينطوي على الاعتقاد بأن الوجود ليس مجرد أشياء وضع بعضها

إلى جانب بعض ولسكنه يمثل خطة شاملة ونظاماً دقيقاً كاملاً . وهذا النظام هو هدف البحث الفلسفي والنظر العلمي .

هناك إذاً إلى جانب عملية التفكير عناصر أخرى كثيرة متنوعة كلها جدير بالدرس . وسندرس كل واحدة منها دراسة خاصة فانه لا بد لفهم طبيعة الفلسفة من دراسة هذه المبادئ كلها فكل واحد منها يمثل عنصراً من عناصرها أو نظراً من الظروف التي لا يتم النظر الفلسفي بدونها أما الآن فسنبداً بعملية التفكير نفسها فهي صميم الفلسفة وجوهرها . وإذا أردنا أن نتفهم طبيعتها فر بما كان من أمثل الطرق وأعد لها أن نعود إلى ما ذكرناه عن الرعيل الأول من الفلاسفة والواقع أننا نستطيع بقليل من العناية والتأمل أن نبني من اشتات المادة المأثورة عنهم صورة العملية النفسية التي قام بها كل منهم ولنبدأ بطاليس .

شك طاليس في العقائد الموروثة التي حاولت تعليل الوجود فأصبح الكون منذ ذلك الحين معضلة غامضة بحاجة إلى تفسير جديد . ولم تنته طبيعة معضلته ولا حدودها فقد نشأت من ظهور هذه الصور من ماء وهواء وأرض وحيوان ونبات ثم أختفاؤها فان ذلك يبدو كعملية تكوين تلبس فيها مادة مجهولة تلك الصور المتعددة تحت تأثير عوامل خفية . فما هي تلك المادة ؟ وكيف تتحول إلى تلك الصور ؟ المعضلة إذا واضحة والوجهة التي يجب أن يتجه إليها البحث غير خفية ومن ثم اتجه طاليس إلى البحث عن التعليل المطلوب فكان أول ما حدث أن استعاد من ذكرياته ما له صلة بتلك المعضلة . فاستعاد ما لاحظته من قبل من تحول الماء من ناحية إلى جمد وأرض ، ومن الناحية الأخرى إلى هواء . وإذا كانت هذه المرحلة لا تبدو أن تكون طور تذكر واسترجاع ومحاولات دون كشف أو ابتكار علمي فان المرحلة التي تليها هي المرحلة الهامة التي يثب فيها

العقل وثبته المنتظرة فيصل إلى العلم الجديد ففي تلك المرحلة تمر بالمفكر لحظة يزول فيها اللبس وينقشع الغموض وتظهر الفكرة الجديدة . وإذا كان طاليس قد استرجع من ذكرياته ما استرجع وحاول من صور التأليف بينها ما حاول فما كان ذلك إلا مقدمة للحظة التي أشرق فيها عقله بنور الفكرة الجديدة وهي أن الكون نشأ من ماء يستحيل صرة تراباً وأخرى هواء وناراً استحالة ذاتية غير خاضعة لمؤثر خارجي ، وقد صرت هذه اللحظة بانكسيماندر حينما خطر له أنه هواء يتمخلخل فيكون ناراً ويتكاثف فيكون ماء ثم يمضي في تكاثفه فيصير تراباً .

وواضح أن هذه الأفكار تتألف من عناصر مستمدة من التجارب التي استمدتها الذائكة في الدور السابق . ففكرة طاليس في صورتها الكاملة تتألف من ملاحظة تحول الماء إلى جمد ويبس من ناحية وتحوله إلى هواء من الناحية الأخرى وكلاهما تجر بتان سابقتان مستقلتان ضمت إحداهما إلى الأخرى فتكون من مجموعها هذا الفرض الفلسفي .

هذه المرحلة إذاً مرحلة كشف وفيها يتم أمران خطيران أحدهما فكري والآخر وجداني ، أما الحادث الفكري الخطير ، فهو الوصول إلى فكرة جديدة تنقلب فيما بعد إذا أيدتها الأدلة ناموساً علمياً أو فلسفياً ثابتاً . فهناك لحظة سريعة يثب فيها إلى بؤرة الشعور خاطر جديد يزيل الشك ويوضح الموقف . وتعد هذه اللحظة جزءاً من تاريخ كل نظرية فلسفية ، أو ناموس علمي . أما الحادث الوجداني فهو ما يرافق ظهور الفكرة الجديدة من لذة وسرور ، بل نشوة وطرب في بعض الأحيان . وقد حفظ لنا التاريخ مثلاً ممتازاً من ذلك ، فهو يحدثنا أن أرشميدس حينما وصل إلى حل معضلته كان يستحم في حوض مملوء بالماء . فنسى ما هو فيه وقفز حين تملكته هذه النشوة من الحوض وجعل يعدو في الطريق عارياً ، وهو

يصيح : « وجدته ! وجدته ! » ، وسواء أضح ما ذكره المؤرخون أم لم يصح فالأمر الذي لا شك فيه ، أن هناك لذة ساحرة لرؤية الحقائق الجديدة ، وأن كلا منا قد ساهم في هذه اللذة بنصيب ، وبخاصة عند حل المسائل الرياضية الغامضة ، في الهندسة والحساب .

والواقع أن هذه المراحل في عملية التفكير بوجه عام تدل عليه الدراسات النفسية الحديثة فعملية التفكير ذات مراحل متعددة متتالية : وأول مراحلها الشك الذي تتعرض له العقائد القائمة بسبب ظهور ما يناقضها من آراء ، أو ظهور صعوبة عملية نعترض سير العمل وتحول دون المضي فيه . فالرجل الذي يزاول عملاً كائناً ما كان يمضي في العادة في طريقه موجهاً كل جهوده إلى عمله حتى تتعرض سبيله صعوبة فيكلف عن العمل ويتجه إلى التفكير في أسبابها ووسائل التغلب عليها ، فإذا تم له الكشف عن ذلك كف عن التفكير وعاد إلى العمل من جديد . والرجل الذي يطمئن إلى صحة عقائده وآرائه ، لا يشعر بحاجة إلى التفكير فيها ، فإذا انتابه الشك في بعضها شرع يفكر ليزيل الشك ويعود إلى اليقين . والخطوة التالية في عملية التفكير هي تحديد المعضلة وذلك أن الصعوبة أو الشك يبدو في أول أمره غامضاً مبهماً فلا يعرف مكان الصعوبة على نحو واضح دقيق ، ولا يظهر موضع الشك بصورة محددة بينة : ومن ثم نتجه إلى تحديد مكان الصعوبة أو موضع الشك ثم إلى تحديد المعضلة التي أحسنا بها تحديداً يدفع عنها اللبس ويزيل الإبهام ، أما المرحلة التالية ، فهي أخطر المراحل وأهمها فهي دور العمل الفكري الإيجابي ، فإنا بعد تحديد موضع الصعوبة والشك نأخذ في البحث عن الحل ونقوم في أثناء ذلك بعمليات عقلية مختلفة . فنقوم في البداية بعملية تذكر نستحضرنها التجارب الماضية ، وليس معنى ذلك أننا عند التفكير في كل

ممضلة تعرض لنا نستدعى كل ما لدينا من تجارب . فهذا عبث ومستحيل ،
ولكننا نستدعى منها ماله صلة بالممضلة التي نذكر فيها فقط أو ما نتوهم أن له صلة
بها ، وهي عملية تلقائية في أغلب الأحيان . ومهما يكن من شيء فهي عملية
استحضار لمعارف قديمة مخزنة لا كشف فيها عن علم جديد ، فهي إذا عملية تمهيدية
فقط تقوم بها في المادة الذاكرة . والذاكرة لا تأتي بجديد وإنما هي استرجاع القديم
وليس هذا كل ما يحدث في هذا الدور فبعد استرجاع التجارب السابقة
تبدأ عملية الإنتاج والابتكار الحقيقية التي تنتهي بظهور الفرض . فان العقل
يقوم شاعراً أو غير شاعر بعملية تركيب كثيراً ما تسبقها عملية تحليل . فهذه
التجارب السابقة التي تم استحضارها لا تبقى مفرقة مشتتة وإنما يضم العقل بعضها
إلى بعض ويصوغ منها صوراً شتى إلى أن يتم له تسكين الصورة التي يشعر بأنها
الحل الصحيح ، وإذ ذلك تنتهي محاولاته وتتملكه نشوة الظفر . في هذا الدور
إذا تذكر وفيه محاولات وتجارب يقوم بها العقل فيما يستدعيه من المعلومات إلى
أن يظهر له الحل الذي يرتاح إليه .

*
* * *

يشعر المصور في أثناء عمله بأن تفصيلات الصورة التي يقوم بصنعها قد استغرقت
انبتاهه فأصبح لا يشعر إلا بها ، وأنه قد لها في أثناء ذلك و بسببه عن شكل الصورة
العام والجو المحيط بها فيضع الريشة جانبا و يتراجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين ليتسنى
له أن يلتقي نظرة شاملة على الموقف كله ، على الصورة وعلى محيطها وكل ما يتصل بها ،
ذلك لأنه يشعر بأن هذه النظرة ضرورية لرؤية الأخطاء التفصيلية وقيادة الأعمال
المقبلة . وفي رأبي أن هذا ضروري للمؤلف أيضاً فإذا ما أحس بأن صورة الموضوع

العامّة قد توارت عنه . وأنّ التفصيلات قد استبدت بانقباهه فلم تترك منه لغيرها نصيبا كان عليه أن ياتى القلم ويتراجع خطوة أو خطوتين ليتسنى له أن يرى الموضوع في صورته العامّة فهذه النظريّة خير عون له على أن يسوس مادته في أثناء عرضه لها سياسة ناجحة وأخفى الآن في موقف يحسن أن أقوم فيه بذلك .

*
* *

ونحن إذا ألقينا نظرة شاملة على موضوعنا هذا كان في استطاعتنا أن ندرك بوضوح طبيعة عملية التفكير والدور الذي يتم فيه رؤية الحل وأن نقدر ذلك حق تقديره .

ليس الشك ولا تذكر المعلومات السابقة إلا أعمالاً تمهيدية للخطوة الأساسيّة في تلك العمليّة وأعنى بها رؤية الحقيقة الجديدة فهذه الرؤية هي التي تضيف إلى معلوماتنا علما جديدا وتزيد الثروة الفكرية للشعوب البشريّة . ويتضح معنى هذا إذا تذكرنا أن جميع القوانين العلميّة قد مرت بهذا الدور فقد كانت جميعا خفية إلى أن عثر عليها العلماء في أثناء بحثهم وتفكيرهم والمهم من الأمر أن العقل البشري في ساعة ظهور الحل يقوم فعلا بعملية ادراك يصل بها إلى الجديد وأن الذي يدركه في تلك الساعات هو النواميس الكونية . وهي جانب من الكون غامض خفي ينكشف في تلك اللحظات الخطيرة .

والكون يتألف من جزئيات كأفراد فصائل النبات والحيوان والجماد والشمس والقمر والنجوم ومن روابط تربط بينها وتؤلف منها وحدات كرابطة التجاذب بين الأجسام ورابطة التمدد بين الحرارة والمعادن وغير ذلك من الروابط العلميّة التي لا عدد لها والادراك الكامل للكون كانه لا يتم إلا بادراك الجزئيات وما بينها من روابط وعلاقات بل لا تتم معرفة الوجود إلا إذا عثرنا على شبكة النسب

والعلاقات التي تربط كل شيء فيه بعضها ببعض . أما الجزئيات فتدرك بالحس ويتم هذا الإدراك دون محاولة أو مجهود بل الواقع أنها تفرض نفسها علينا فرضاً . فيمكن أن يفتح الإنسان عينيه لتهاجم حبه صور ما حوله من نبات وحيوان وإنسان ومنازل واثاث ونحو ذلك . أما النسب والعلاقات الخفية غامضة لا تدرك كحاسة من الحواس . وقد عاشت البشرية قروناً دون أن تدرك تجاذب الأجسام مثلاً أو أن الحرارة تمدد المعادن ونحو ذلك من النواميس العامة لأن الحواس لا تقع على هذه النسب والروابط فنحن نرى الأجسام ولا نرى التجاذب وكذلك الحال بالنسبة للنواميس العلمية المختلفة . ولكننا ندركها بقوة أخرى هي العقل أو الذكاء فهو الذي يحس بالتجاذب ويشعر به فتلك خاصته ومهته الطبيعية ومن كان أوفر حظاً منه كان أقدر على إدراك هذه النسب . الكون إذاً تألف من جزئيات ونسب ، فالحس يدرك الجزئيات والعقل أو الذكاء يدرك النسب وبذا يتم ادراك الكون . وندرك هذه النسب أحياناً عند رؤية الطرفين مباشرة . فنحن عند رؤية الأهرام لأول مرة نشعر بمجرد رؤيتها بأن الهرم الأكبر أكبر من الثاني . ندرك هذه النسبة في الحال بمجرد أن يقع البصر على الهرمين المذكورين جاثمين فوق الرمال جنباً إلى جنب ولكننا في كثير من الأحوال لا ندرك النسب إلا بعد تفكير طويل يبدأ بصعوبة أو شك يتلوه جمع للمعلومات القديمة المتصلة بالموضوع ثم يحدث فجأة أن نرى النسبة أو القانون الذي نبعث عنه . هذه العملية إذاً عملية ادراك يكشف عن ناحية مهمة من الكون وهي ناحية الروابط والنسب التي تقوم بين جزئياته وكلياته . وعمل العلماء في الواقع ضرب من الرؤية لهذه الناحية الخفية من هذا الوجود الغامض . وهم بمثابة هم على البحث قد استطاعوا أن يروا كثيراً من تلك النواميس الكونية التي تفوت العد ولا يزالون يواصلون عملهم المجيد ويزيدونا بهذا الكون هلمما ومعرفة . ولكن التفكير العلمي الصحيح لا يقف عند حد ظهور الفكرة الجديدة

ورؤية القانون الكونى الفاضل . فإنه لا ضمان فى مجرد الرؤية لصحة الفكرة فمن الممكن أن تكون الفكرة مخطئة والرؤية غير صادقة . ولهذا كان من تقاليد التفكير العلمى التريث فى هذا الموقف . فالعلماء لا يؤمنون بالفكرة الجديدة عند ظهورها ولكن يأخذونها كاحتمال فقط ويسمونها من أجل ذلك فرضا لا ناموسا علميا ولا يرفعونها الى مرتبة القانون العلمى الا بعد أن تمر بامتحان دقيق . وتسمى هذه المرحلة مرحلة التحقيق العلمى . ولا بد لنا من شرح طبيعتها بشيء من التبسط التحقيق العلمى اسم يطابق سماه فىو عملية تحقيق حقيقية . يقوم بها الباحث نفسه ازاء الفكرة الجديدة التى خطرت له بعد تفكير طويل أو قصير وتبدأ ككل تحقيق باتهام هذه الفكرة الجديدة والشك فى صحتها ثم يتاوى ذلك البحث عن الأدلة التى تثبت صحتها وتؤيد قضيتها مع الاستمداد التام لقبول الشواهد التى قد تكذبها وتنفي صحتها . ولا نريد هنا أن ندرس أنواع الأدلة التى يعتمد عليها العلماء فى إثبات ما يعن لهم من فروض علمية دراسة تفصيلية مستفيضة . فإن هذا يقطعنا عما نقصد إليه ولكننا لا نرى مع ذلك بدا من عرضها فى صورتها العامة مجتزئين بالإجمال عن التفصيل .

تثبت الفروض العلمية بأساوين : الأسلوب الرياضى والأسلوب الاستقرائى أما الأسلوب الرياضى فلا يتقاضى الباحث العلمى إلا أن يشبب أن هذا الفرض الذى وصل إليه بتفكيره نتيجة منطقية لقضية بديهية . والمثل الأعلى لهذا النوع من التحقيق هو الرياضة وتعطينا الهندسة منه أوضح الأمثلة وأدقها فان النظريات الهندسية تنفرع جميعا من عدد من البديهيات تنتهى إليها وتستمد منها صحتها . ولكن لا يجوز أن يذهب الظن بنا إلى أن التفكير الرياضى يختلف عن التفكير فى العلوم الطبيعية العادية . فمالم عملية التفكير واحدة فى الحالين ، وإنما يختلف

نوع الإثبات فقط فالتفكير الرياضي تثيره الصعوبات والشكوك وغير ذلك وينتهي برؤية قاعدة جديدة تقرر نسبة كانت إلى ذلك الحين غير معروفة ثم يتلو ذلك دور التحقيق العلمي . فمثلا إذا رجسنا إلى نشأة نظرية كالمظارية التي تقرر أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان ، كان لنا أن نتوقع أن هذه الفكرة خطرت للباحث أولا ثم أعقبتها عملية التحقيق العلمي التي أدت إلى إثباتها وقد يكون هذا الفرض نتيجة نظارة إلى خطين متقاطعين ومقارنة الزاويتين المتقابلتين بالرأس في الشكل المذكور . فمثل هذه المقارنة جديدة بأن توحي بهذه الفكرة وتفضي إلى رؤية هذه النسبة . ولكن الباحث العلمي هنا كالباحث في العلوم الطبيعية لا يبادر إلى قبول هذه الفكرة والإيمان بها بل يحاول تحقيقها وما هو إلا أن يشرع في ذلك حتى ينتهي بعد تفكير طويل أو قصير إلى أنها نتيجة منطقية للنظرية الأولى التي تقرر أنه إذا وقع مستقيم على آخر كانت الزاويتان الحادتان مساويتين لزاويتين قائمتين . والنظرية الأولى نفسها نتيجة لبديهية المساواة التي تقرر أن المساويين لثالث متساويان . ومن ثم تكون نظرية الزاويتين المتقابلتين بالرأس هي نفسها نتيجة لبديهية المساواة ترجع إليها وتستمد منها الصحة والصدق .

هذا نموذج للتحقيق العلمي في الرياضة وأساسه أن القضايا البديهية صحيحة صادقة بل لا يتصور العقل كذبتها وأنها تضي ما تتمتع به من صحة وصدق على جميع نتائجها المنطقية فبديهيات الرياضة مثلا تمد رواق الصحة لا على نفسها فقط ولكن على كل ما ينتج منها من قضايا بالغاما بلغ عددها . فيكفي إذا أن تثبت أن فرضا علميا يتصل ببديهية من البديهيات اتصال النتيجة بالمقدمة حتى يزول كل شك في صحته ويصبح ناموسا علميا ثابتا . وذلك لأنه لا شك في صحة البديهيات ولا مفر لنتائجها من أن تتمتع بهذه الصحة أيضا . هذا النوع من الإثبات

إذا يحدث في مرحلة التحقيق العلمى في التفكير الرياضى وهو أقوى أنواع الإثبات من الناحية النظرية وكل منا يذكر ما كان يحسه أثناء دراسته من قوة البرهان الرياضى ومثاقته .

والواقع أن الفلاسفة منذ أقدم العصور قد عرفوا ما لهذا البرهان من قوة وعدوه المثل الأعلى للأدلة العلمية . وخيل إلى بعضهم أنه قد يكون من الممكن الوصول إلى مثل هذه البراهين لا فى الرياضة وحدها ولكن فى جميع المباحث العلمية كالعلوم الطبيعية مثلا . ومهما يكن من شىء فقد اتخذ منه الفلاسفة شاعرين أو غير شاعرين نموذجيا كونه فى الدراسات الفلسفية . وقد كان ديكارت أول من حاول ذلك محاولة قائمة على دراسة دقيقة فقد كان هو نفسه رياضيا بارعا ومن الطبيعى لمن عانى الرياضة أن يشعر بما يمتاز به البرهان الرياضى من قوة ووضوح وأن يفكر إذا ما اتجه إلى دراسة أخرى فى نقل أسلوب الدراسة الرياضية إليها . والواقع أن ديكارت حينما اتجه إلى الفلسفة وأحس أن بناء الفلسفة القديمة بناء متهار لم يلبث أن عزا ذلك إلى عجز أسلوب النظر الفلسفى عن أن يصل بالباحثين إلى مثل اليقين الذى يصل إليه فى الرياضة . وخيل إليه أننا إذا استخدمنا الأسلوب الرياضى فى الدراسات الفلسفية أمكننا أن نصل هنا كما نصل هنسك إلى نتائج فلسفية يقينية . فتجرد لتحديد أصول البرهان الرياضى وليس من الممكن أن ندخل هنا فى دراسة تفصيلية لجهود ديكارت فى هذا الميدان ولهذا فسنجتزىء بالصورة العامة للبرهان الرياضى كما يراه ديكارت .

يرى ديكارت أن أساس البرهان الرياضى يجب أن يطلب فى بديهيات الرياضة التى يستنبط منها ما سواها وفى الصلة القائمة بين تلك البديهيات ونتائجها وأخص صفات البديهيات هو الوضوح فنحن نرى صدقها مباشرة ونراه بوضوح

تمام وحسبك أن تتذكر بديهية المساواة التي تنص على أن المساويين لثالث متساويان لثرى مدى ما تتمتع به هذه البديهيات من وضوح تام يدفعنا في الحال إلى قبولها والإيمان بها . ووضوح القضية يتفاوت في درجته فكثير من النظريات الأخلاقية واضحة ولكن هذا الوضوح يبلغ أقصى مداه في بديهيات الرياضة . ولا يقتصر الوضوح على البديهيات فقط فالبرهان الرياضى يتألف من هذه البديهيات ونتائجها والصلة بينها وبين نتائجها واضحة بل شديدة الوضوح . ومن ثم نستطيع أن نقول أن كل ما نحتاج إليه لنصل بالفلسفة إلى درجة الثبوت الذى تتمتع به الرياضيات هو أن نسلك السبيل نفسه : فنبداً ببديهيات واضحة الصحة بحيث لا يخالفنا في صدقها أى شك ثم نستنبط منها نتائجها على شريطة أن تكون الصلة بين المقدمات والنتائج واضحة أيضاً بحيث لا يكون ثمة مجال للشك في ضعف الصلة أو غموضها . وذن ديكارت أن الوصول إلى البديهيات ممكن في الفلسفة كما أمكن في الرياضة وأن الأمر لا يتقاضانا إلا عملية تحليل تنتهى بنا إلى البسيط من الأفكار فإذا بنا نرى العلاقات بين هذه الأفكار البسيطة واضحة جلية . وإذا بنا قد حصلنا على البديهيات المطلوبة والواقع أن ديكارت بعد أن استخلص ما ظنه الصورة العامة للبرهان الرياضى شرع يستخدمه في تفكيره الفلسفى فحاول العثور على بديهية فلما ظن أنه قد حصل عليها طفق يستنبط منها ما سماه نتائجها .

هناك إذا نوع خاص من الإثبات يتألف من البديهيات ونتائجها وأساسه الرؤية الواضحة للصدق والصحة لا في البديهيات وحدها ولكن في الصلة التي تربطها بنتائجها وهو الأسلوب الذى يستخدم في الفلسفة منذ عهد بعيد . التحقق العلمى إذا قد يأخذ صورة البرهان الرياضى فيرجع بالقضية إلى بديهية من البديهيات

وقد يأخذ صورة أخرى مخالفة والواقع أن التحقيق العلمى فى العلوم الطبيعية كعلم الطبيعة والكيمياء يختلف عما يحدث فى الرياضيات . فالفروض العلمية الطبيعية تقرر صلة السببية بين الظواهر كالفرض الذى يقرر أن الحرارة تمدد الأجسام وكالفروض العلمية المختلفة وتحقيق هذه الفروض يسلك طرقا مختلفة نكتفى بالإشارة إلى بعض صورها . من ذلك أننا قد نفترض عند البحث عن سبب إحدى الظواهر الطبيعية أن عاملا ماهو سبب تلك الظاهرة ثم نبحث عن إثبات علمى لهذا الفرض فنجده فى عدد من الحالات التى تظهر فيها تلك الظاهرة تحت ظروف خاصة نجعلها فيما يأتى :

- ١ — تظهر تلك الظاهرة فى جميع تلك الحالات دون استثناء .
- ٢ — وتقترن فى هذه الحالات بعوامل كثيرة مختلفة لا بعامل واحد .
- ٣ — تظهر بعض تلك العوامل فى بعض الحالات وتختفى فى بعض .
- ٤ — ما عدا عاملا واحداً فإنه يظهر فى جميع تلك الحالات .

فمن الواضح أن العوامل التى تظهر فى حالات وتختفى فى أخرى لا يمكن أن تكون هى الأسباب الطبيعية لتلك الظاهرة، أما العامل الذى يظهر فى جميعها فهو الذى يعده الباحثون السبب المسئول عن الظاهرة المذكورة فإذا اتفق أن هذا العامل هو نفسه الفرض الذى تحاول تحقيقه عد ذلك إثباتا كافيا لصحته . ويسمى هذا الأسلوب بطريقة الاتفاق . وقد تعرض لنا حالتان أو أكثر تتوافر فيهما الشروط الخاصة الآتية :

- ١ — أن الحالتين متماثلتان فى كل الظروف
- ٢ — سوى أن الظاهرة التى ندرسها ونحاول معرفة سببها تظهر فى إحدى الحالتين ممتزنة بعامل خاص وتختفى فى الحالة الأخرى وتختفى معها هذا العامل

ودلالة هاتين الحالتين واضحة فاختفاء العامل مع اختفاء الظاهرة وعودته إذا عادت إلى الظهور دليل واضح على ارتباطهما برابطة السببية ، فإذا اتفق أن هذا العامل هو الفرض الذي وصلنا إليه ونحاول تحتيقه كان ذلك إثباتاً كافياً لما توقعناه من أنه سبب الظاهرة ومصدر وجودها ، وقد توجد إحدى الحالتين فقط في الطبيعة فنوجد نحن الأخرى فكثيراً ما يتبادر إلى ذهن بعض الأطباء أن مكروباً خاصاً هو سبب مرض من الأمراض فيعمد إلى حيوان خال من المرض ومن المكروب فيحقنه بالمكروب فإذا ظهر المرض كان ذلك إثباتاً لصحة الفرض فإن هنا حالتين أمدتنا باحدهما الطبيعة وهي الحيوان الخالي من المرض والمكروب معاً أما الحالة الثانية فقد كوناهما نحن وهي حالة الحيوان نفسه بعد الحقنة وظهور المرض ، ولا فارق بين الحالتين إلا اختفاء المرض والمكروب في واحدة وظهور المرض والمكروب في الثانية ، وتسمى هذه الطريقة بطريقة الاختلاف وبتكون الإثبات في هذه الطرق من أمرين :

١ — أولهما الحالات الثابتة بانشاهدة ، كحالتى الحيوان فى الصحة والمرض .

٢ — دلالة الحالات المذكورة ، فمن البين أن حالتى الحيوان المذكور تدلان دلالة واضحة على أن المكروب سبب المرض

أساس الإثبات هنا إذا هو الحالات الجزئية المحسوسة من ناحية ودلالة تلك الحالات من الناحية الأخرى ، أما التحقيق الرياضى فيقوم على أساس البديهيات من ناحية ودلائلها على الفروض من ناحية أخرى .

ويمكن أن يقال بالإجمال أن حجر الأساس فى الإثبات العلمى الرياضى والطبيعى هو القضايا الثابتة بالحس أو بالبداهة ولنكن هذه القضايا لا تمدوان

تكون حجر الأساس فقط أما العنصر الثانى الهام فهو دلالة تلك القضايا دلالة قاطعة على صحة تلك الفروض . وإنما يتم ذلك إذا أثبت أن تلك الفروض نتائج منطقية لتلك القضايا البديهية أو الحسية ، وفروض الرياضة تثبت ثبوتها قاطعا إذا اتضح أنها نتائج منطقية للبديهيات الرياضية والفروض الطبيعية تثبت أيضا متى ما ظهر أنها نتائج منطقية للقضايا التجريبية ، فالمكروب الذى نفترض أنه سبب لمرض ما يثبت بمجرد أن نحقق به حيوانا سليما فتظهر عليه أعراض المرض . لأن هذا الفرض نتيجة منطقية واضحة للحالتين المذكورتين ، فلا يكاد الإنسان يراها حتى تدفعه هذه الرؤية إلى الاعتقاد بأن هذا المكروب سبب لهذا المرض وتسمى الطريقة الرياضية التى تبدأ من البديهيات بالاستنباط أما الطرق التى تبدأ من القضايا الحسية فانحصرها العام هو الاستقراء ولا تضارب بين الطريقتين . ومن العلوم ما نشأ نشأة استقرائية ثم أصبح علما استنباطيا كالرياضة فقد كان قدماء المصريين يعرفون كثيرا من النواميس الرياضية ولكن بالأسلوب الاستقرائى ثم صارت علما استنباطيا ، ونستطيع أن نفهم ما حدث إذا تذكرنا أن موضوع الدراسة فى الرياضة هى الأشكال المنتظمة وهى أمور محسوسة يمكننا إذا أردنا أن نعرف خصائصها ونواميسها العامة أن نبني على أساس الحس أو على أساس القضايا البديهية العقلية . فيمكننا مثلا إذا خطر لنا أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان أن نسال في إثبات هذا الفرض كلا من الطريقتين المذكورتين فنالميسور أن نرسم صورا مختلفة تمثل زاويتين متقابلتين بالرأس ثم نقيس الزاويتين المتقابلتين فى كل صورة من تلك الصور فنجد أنهما متساويتان فى جميع تلك الصور وإذا ثبت الفرض ولكن بطريقة استقرائية ويمكن من الناحية الأخرى أن نرجع بالفرض المذكور إلى بديهية المساواة فنجد أنه نتيجة منطقية لها .

الرياضة إذا كعلم الطبيعة أو الكيمياء يمكن أن تكون وليدة التجارب الحسية وقد بدأت حياتها كذلك ولكنها لم تلبث أن غيرت طريقها وسلمت إلى إثبات نظر ياتها طريقا آخر وهو الطريق الاستنباطي ، وهذا ممكن في الرياضة لا في العلوم الطبيعية ، وسبب هذا أن قضايا الرياضة تختلف في طبيعتها عن قضايا العلوم الطبيعية أو الكيمياء فهي مثلا قد تقرر نسبة بين طرفين كما تقرر القضايا الرياضية ولكنها نسبة ممكنة لا ضرورة فالتقانون الذي يقرر أن الحرارة تمدد المعادن يقرر نسبة ممكنة فمن الجائز عقلا ألا تؤثر الحرارة في الأجسام هذا التأثير وقد كان القدماء فعلا لا يظنون أن الحرارة تفعل في المعادن هذا الفعل هذه إذا نسبة ممكنة فمن الجائز عقلا أن يقع الأمر على هذا النحو أو ذاك وفي مثل هذه الحالة لا بد لنا من الرجوع إلى الواقع المحسوس ليفصل في الموقف على نحو ما ، إذ أن العقل وحده لا يستطيع أن يقضى فيه بسلب أو إيجاب . ولهذا فلا مفر لنا في إثبات هذا النوع من القضايا من أن نرجع بالقضية إلى الواقع لنرى كيف يفصل في أمرها ، ومتى خطر لنا فرض في العلوم الطبيعية ، تذكرنا في الحال أنه يقرر نسبة ممكنة وأنه لا يجوز الوثوق به إلا بعد اختباره اختباراً عملياً وهذا الاختبار يتطلب الرجوع إلى الواقع واستعراض الحالات التي تؤيد الفرض إن كان ثمة شيء منها ثم ملاحظتها وقراءة دلالتها على النحو السابق الذكر ، أما قضايا الرياضة فتقرر نسباً ضرورية لا ممكنة كالقضية التي تقرر أن المساويين لثالث متساويان ، فإن المساواة بين شيئين كل منهما مساو لثالث نسبة ضرورية لا ممكنة فإذا صح أن كل منهما مساو لثالث كان حتماً أن يكونا متساويين واستحالة عقلا أن يكونا متفاوتين ، ويكفي في القضايا الضرورية أن نتصور الطرفين لنحكم بصحة القضية وبأنها ضرورية فمثلا يكفي أن نتصور الكتل والجزء لنحكم بدون تردد أن الكتل

أ كبر من الجزء ، وأن هذه نسبة ضرورية ، وأن تقيضها مستحيل . فليس من الممكن عقلا أن يتساوى الكل وجزؤه ، أو أن يكون الجزء أكبر من الكل ، والنقطة الهامة هنا هو أنه يكفي أن نتصور الطرفين لنحكم بصحة النسبة ونشعر بأننا في غير حاجة إلى الرجوع إلى الواقع . أما قضايا الماوم الطبيعية : فتصور الطرفين لا يعيننا على رؤية النسبة ، فتصور الحرارة والمادن لا يكفي لتقرير أن الحرارة تمدد المادن ، ولا بد هنا من الرجوع إلى الواقع المحسوس ليشهد للقضية أو عليها .

هناك إذا قضايا بديهية واضحة ، لا يكاد المرء يتصورها حتى يقضى بصحتها وضرورتها واستحالة تقيضها ، ويشعر بأنه في غير حاجة إلى الرجوع إلى الحقائق الخارجية ليتخذ منها دعامة لها ، وهذا النوع من العلم يمتاز بأنه يقيني لا سبيل إلى الشك فيه . أما المعلوم الطبيعية الإستقرائية : فليس من الممكن أن ترقى إلى مرتبة هذه العلوم في قوة الثبوت ودرجة اليقين ، وكل أفق علمي نمثر فيه على هذا النوع من القضايا البديهية الضرورية ينقلب العلم الخاص به علما ضروريا تقرر نوايسه دون رجوع إلى عالم الحس ، ومن غير حاجة إلى القيام بتجارب عملية ، وهذا ما حدث في الرياضة . فقد أمكن أن نمثر في ميدان الرياضة على بديهيات وأن نستنبط منها نتائجها ، ونصل بذلك إلى علم يقيني ، لا يداخلنا في سلامته شك أو ارتيات . فقد ردت الأشكال الهندسية إلى بسائط من نقطة وخط وزاوية وسطح ، وعثر الباحثون على عدد من البديهيات ، منها : بديهية المساواة سابقة الذكر ، فكانت النتيجة أن تحوالت الرياضة إلى علم نظري دعامته عدد من البديهيات التي تفرعت منها نظريات الهندسة المختلفة . فنظرية المساواة سالفه الذكر هي أساس النظرية الهندسية الأولى التي تقرر أن الزاويتين

الحادثتين من سقوط مستقيم على آخر مساويتان لزاويتين قائمتين ، وهذه بدورها أساس النظرية التي تقرر أن الزاويتين المتقابلتين بالرأس متساويتان ، وهلم جرا فمن هذه البديهية تفرعت النظريات الهندسية الأخرى كنتائج منطقية لها ، فتحولت الرياضة بهذا من علم إستقرائي يعتمد على الحس والتجارب و يقوم على امتحان الواقع وملاحظته إلى علم نظري ضروري يقرر ما يقرر في معزل تام عن الحس والمحسوسات ، وقد تم ذلك في فجر الفلسفة الاغريقية ، وأكبر الظن أن الذي قام بذلك هو طاليس نفسه واضع أساس الفلسفة .

وقد خيل لبعض الفلاسفة ، متأثرين بما قد تم في الرياضة أنه ربما كان من الممكن أن تنقلب العلوم الطبيعية في يوم من الأيام علوماً نظرية . وأشار بعضهم إلى أننا إذا اتبعنا في العلوم الطبيعية ما اتبعناه في الرياضة ، فمقد نحصل على نفس النتيجة . وذلك أننا حينما حللنا الأشكال الهندسية إلى بساطتها من نقطة وخط وزاوية ، ثم اعتمدنا بعد ذلك على قضايا أولية ، كديهية المساواة استطعنا أن نصل إلى النظريات الأولى ، وأن نترقى منها إلى النظريات الأخرى التي نستند إليها ، وانتقل علم الهندسة فصار علماً نظرياً بعد أن كان علماً تجريبياً أفليس من الجائز أن يحدث مثل هذا في العلوم الطبيعية إذا اتبعنا الأسلوب نفسه فحللنا قضاياها وكلياتها إلى بساطتها وتحسسنا ما بينهما من نسب حتى نصل إلى بديهيات تقرر نسباً ضرورية أولية ، ثم جعلنا بعد ذلك نستنبط منها نتائجها المنطقية ، ولكن هذا الحلم الفلسفي لم يتحقق إلى الآن .

وسبب ذلك هو الاختلاف بين موضوع الدراسات الطبيعية ، وموضوع العلوم الرياضية ، فالطبيعة التي تدرسها العلوم الطبيعية لا تسمح بالقضايا البديهية . أما

موضوع الرياضة ، وهو المقادير فيسمح بها ، فيمكننا مثلاً أن نقرر أن المساويين لثالث متساويان ، وأن الكل أكبر من الجزء ، يمكننا أن نقرر هذه القضايا وأشباهها دون رجوع إلى الطبيعة لمشاهدتها واستفتائها ، وهذه البديهيات هي أساس النواميس الرياضية والدعامة التي تستند إليها ، وما النواميس الرياضية إلا النتائج المنطقية التي تستمد من هذه البديهيات . وهذا في الواقع هو التحقيق العلمي في الرياضة . ففروض الرياضة كغيرها من الفروض الفلسفية والعلمية ، قد تنشأ بعملية تفكير مرهكة ، أو بخاطر مفاجيء ، ولكنها تحقق بأسلوب يخالف الأسلوب المتبع في تحقيق الفروض الطبيعية ، وأساسه محاولة اكتشاف الصلة المنطقية بين الفرض ، وبديهيات الرياضة أو نظرياتها الثابتة من قبل ثبوتاً قائماً على أساس تلك الصلة نفسها . ومهما يكن من شيء فأسلوب التحقيق هنا يخالف أسلوب التحقيق في العلوم الطبيعية مخالفة واضحة . فنحن لا نرجع هنا إلى الطبيعة ، ولا نستفتى عالم الحس ، وإنما نرجع إلى البديهيات وحدها ، ونعد ذلك إثباتاً كافياً مغنياً عن كل ما سواه ، ويسمى أسلوب العلوم الطبيعية بأسلوب الاستقرار كما يسمى الرياضي بأسلوب الاستنباط .

ويتوقف استعمال هذا أو ذاك في البحث على طبيعة المادة التي ندرسها وهنا لا بد من التنبية على الحقائق الهامة الآتية :

١ - من الواضح : أن أسلوب الاستقرار لا يمكن أن يستخدم إلا في دراسة الموضوعات التي يمكن مشاهدتها بالحس الظاهر أو الباطن ، وتلك هي الظواهر الطبيعية المادية والنفسية ، فالظواهر الطبيعية المادية كالتمدد مثلاً تدرك بالحس الظاهر . أما الظواهر النفسانية ، كالتمكيز والتخيل واللذة والألم فانها تدرك بالحس الباطن ، ويمكن أن نلاحظها ملاحظة باطنية ، ومن ثم أمكن أن ندرس هذه

وتلك بأسلوب الاستقراء الذي يمتد على الحس الظاهر أو الباطن . فظاهرة تمدد المعادن بالحرارة مثلا تدرس بالاستقراء ، وأكبر الخبان أن هذه الفكرة قد خطرت للمباحث تحت تأثير ملاحظات حسية عابرة كتمدد الماء في إناء في قدر فوق نار موقدة ، فسلك في تحقيقها طريقا من طرق التحقيق الاستقرائي المعروفة كأن يقيس قضيباً معدنياً ثم يساط عليه الحرارة مدة من الزمن و يقيسه للمرة الثانية ، فيكتشف أنه قد تمدد ، ويرى في ذلك إثباتا للفرض الذي افترضه من قبل ، وهو أن الحرارة تمدد الأجسام ، وذلك لأن الموقف يحتوي على حالتين متماثلتين ، تخلو إحداها من الظاهرة والفرض المفترض لتعمليلها ، وهي حالة القضيب الممدنى قبل أن يتسلط عليه الحرارة . أما الثانية : فتحتوى على الظاهرة وهي التمدد والفرض المذكور ، وتلك هي حالة المعدن بعد أن سلطت عليه الحرارة .

والمهم من الأمر : أن طريقة الاستقراء أمكنت هنا لأن التمدد ظاهرة طبيعية محسوسة يمكن أن توحى بها الملاحظات الحسية ، ويمكن أن تختبر صحتها بالتجارب الحسية .

٢ — ولكن الطبيعة تنقسم قسمين : قسم يمكن أن يدرس بالاستقراء وحده . وهو القسم الذى لا يمكننا أن نصل فيه إلى قضايا بديهية تصلح دعامة للاستنباط العقلى ، فان هذا القسم لا يمكن أن يدرس بالاستنباط ، ولا مفر من الاعتماد على الاستقراء وحده فى دراسته ، وهذا القسم هو الموضوعات التى تدرسها علوم الكيمياء والطبيعة والبيولوجى وعلم النفس ، وسواه ، وإلى جانبه يوجد قسم آخر يمكن أن يدرس بالاستقراء والاستنباط معا ، وذلك لأنه محسوس ، فيمكن

استخدام الأسلوب الاستقرائي في دراسته ، ولكنه من ناحية أخرى يسمح بالمقضايا البديهية الضرورية للتفكير الاستنباطي ، وذلك كالأشكال الهندسية ، ونواتج الطريقتين متطابقة ، فالاستقراء والاستنباط مثلا يفضيان إلى نتيجة واحدة في دراسة الزاويتين المتقابلتين بالرأس ، فكل من الطريقتين تنتهي إلى أنهما متساويتان ، وكذلك الحال في مقدار زوايا المثلث ، وغير ذلك .

٣ — ولكن الكون أوسع من الطبيعة ، فالمفروض أن الطبيعة هي القسم البادئ من الوجود ، وأن وراءها أسس الكون ودعائمه ، فوراء الظواهر المادية جوهر المادة نفسه ، ووراء الظواهر النفسية جوهر العقل ، ووراء عالم المادة والعقل مصدر الوجود وسببه الأعلى . والطبيعة المادية والعقلية ظاهرة مكشوفة ، لا يحجبها عناشيء ، ومن ثم تسنى لنا أن ندرسها بالأسلوب الاستقرائي التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة الحسية والباطنية . أما ما وراء الطبيعة : فهو فوق متناول الحس الظاهر والباطن ، ولهذا لا مجال لاستخدام الأسلوب الاستقرائي فيه ، فكيف إذا ندرسه . كيف نقرر وجود الموجود منه ، ونحدد صفات ماثبت وجوده منه ؟ من الواضح أنه لا سبيل إلى ذلك بغير الأسلوب الاستنباطي ، فبالاستنباط نستطيع أن نفصل في وجود العقل والجوهر المادى ووجود الإله ، وبالاستنباط قد نستطيع أن نحدد خصائص العقل ومصيره ، وخصائص الجوهر المادى ، وبه قد يتسنى لنا أن نعرف صفات الإله وصلته بالكون ، وأساس الأسلوب الاستنباطي كما سبقت الإشارة إليه هو البحث عن البديهيات واستنباط نتائجها ، وقد عرف ديكارت هذه الحقيقة ، فحاول في دراسته لما وراء الطبيعة أن يصل إلى بديهية لا سبيل إلى الشك في صدقها ، وأن يستنبط منها ما عساه لها من نتائج بالنسبة لوجود الله ووجود عالم المادة ، وقد كانت بديهيته

(أنا أفكر فأنا إذا موجود) ومنها استنبط وجود عالم المادة ووجود الله .
أما اسبينوزا : فكان أكثر من ديكارت دقة وأشد منه عناية في تطبيق
الأسلوب الاستنباطي في الفلسفة ، فقد مهد لهذا التطبيق قبل الاقدام عليه .
رسلك في ذلك مسلك واضح أسس الرياضة النظرية ، فحلال الأفكار
الميتافيزيقية ، حتى وصل إلى ما ظنه البسائط الأولية ، كما حلل الرياضيون
القضايا والأفكار الرياضية إلى عناصرها البسيطة ، وحاول أن يستنبط منها حقيقة
الكون على مثال ما صنع أولئك الرياضيون إذ حاولوا أن يستنبطوا خصائص
الأشكال الهندسية من البسائط الرياضية ، ومهما يكن من شيء فالاستنباط
لا الحس هو الطريق الوحيد الذي نستطيع أن نثبت به ما وراء الطبيعة ونحدد
صفاته ونواميسه . ولا يقتصر مجال الاستنباط على نظرية الوجود ، بل هو
أيضا أسلوب البحث في الأخلاق ، فباحث علم الأخلاق تدور في أكثر أمرها
حول الحسن والوجوب ، والصلات القائمة بينهما ، وعلماء الأخلاق : يعدون
مهمتهم الأساسية تحليل معنى الحسن والوجوب ، وبيان المبادئ العامة التي
تتصف بالحس الذاتي ، والأسلوب المرضي في ذلك : هو أسلوب الاستنباط .
فمنهم من يرى أن هناك عددا من المبادئ العامة ، تتصف بالحس الذاتي
اتصافا ضروريا : كالصدق ، والوفاء بالوعد ، والشجاعة ، والعفة ، ونحو ذلك .
وأننا ندرك ذلك إدراكا مباشرا ، وأن القضايا التي تصل إليها عن طريق هذا
الإدراك قضايا بديهية من نوع البديهيات الرياضية المعروفة .

ومنهم من يذهب إلى أن هناك بديهية واحدة ، وأن هذه القضايا وأمثالها
نتائج منطقية لهذه البديهية ، ومهما يكن من شيء فالفرقان متفقان على أن
أسلوب البحث في علم الأخلاق هو الاستنباط ، وأن مهمة الباحث الأولى هي

البحث عن بدئية أو بدسييات في هذا المجال ثم استنباط نتائجها منها .

« * »

وقد آن لنا بعد عرض هذه التفصيلات المتعددة أن نفتتح بالمبدأ الذي وضعناه
آنفا ، وهو مبدأ التراجع إلى الوراء لإلقاء النظرة العامة الجامعة ، والنقاط الصورة
الكاملة التامة ، دون اهتمام بالتفصيلات .

*
* *

و إذا ألقينا هذه النظرة « على هذه العملية المركبة ، بدت لنا من مراحلها
المتعددة ، مرحلتان تملوان الجميع في خطورتها و بعد أثرهما :

أما أولاهما : فمرحلة ظهور الفرض ، ففي هذه المرحلة يتحقق الهدف الذي
تتجه إليه عملية التفكير ، وهو الوصول إلى ناموس عام ، أو حل لمشكلة من
المشاكل ، وفيها يقوم العقل بعمله الجليل ، وهو رؤية ذلك الجانب الخفي من الكون
ذلك الجانب الذي تمثله النظم العامة ، من طبيعية ، وغير طبيعية ، فيدرك أن الأجسام
تتمدد بالحرارة وأن زوايا المثلث تساوي قائمتين ، وأن سبب حركة الرياح العامة
هي سقوط أشعة الشمس الحارة عند خط الاستواء ، وغير ذلك من النواميس
العالمية المختلفة ، فالواقع أن كل ناموس علمي قد مر بهذا الطور الخطير .

و يمثل هذه اللحظة تمثيلا واضحا « إسحاق نيوتن » حينما رأى تفاحة تسقط
إلى الأرض ، فسبح فكره سبحانه طويلا أو قصيرا ، ثم خطر له أن هذا قد
يكون جذبا ، وأن الأجسام تتجاذب . وربما كان من الصواب أن نقول أنه في
هذه الساعة شعر بالجذب كحقيقه واقعة ، وانكشفت له تلك الحقيقة الكونية

المخبوءة ، وليس معنى ذلك أنه أحسه بأحدى حواسه ، فالجذب لا تدركه إلا بصار
ولكنه أدركه بنوع خاص من الإدراك ، أدركه بعقله أو بذكائه ، كما يقول علم
النفس الحديث ، فالعقل أو الذكاء ، قوة من قوى الإدراك ، تدرك عنصراً خاصاً
من عناصر الوجود ، وهى النسب القائمة بين الأشياء والتي تتألف من شبكتها
مجموعة المعلوم والمعارف الإنسانية ، هذه إذا ساعة رؤية وكشف وخلق فكري .
وجميع ما يحيط بهذه الخطوة — خطوة الفرض — خادم لها ، فالتفكير الذى
يسبقها يهيء الجو لها باسترجاع الحقائق السابقة ، وتحليلها ثم تركيبها فى صور مختلفة
تمهيداً لظهور الصور الصحيحة الصادقة .

أما ثانیتها : فخطوة التحقيق العلمى ، ويجب أن تكون مهمة التحقيق
العلمى فى عملية التفكير واضحة ، فمرحلة التحقيق لا تأتى بجديد ، ولا تزيد
العلم اتساعاً ، ولكنها تعمل عملاً آخر لا يقل عن هذا فى خطورته العلمية ، وذلك
أنها تزيل الشكوك التى تخوم حول الفرض ، وتنقله فى سلم المعرفة من درجة الشك
والاحتمال إلى درجة الصحة ، والثبوت المنطقي ، وترقى به من حالته كمجرد فرض
علمى غير ثابت إلى مستوى القوانين العلمية المعترف بها اعترافاً عاماً .

والتحقيق العلمى — كما سبقت الإشارة إليه — يأخذ صوراً متعددة ، ولكنه
يقوم على أساسين اثنين ، فحجر الأساس فيه : إما قضايا بديهية ، أو وقائع حسية
وكلاهما أساس صالح فالمحسوسات حقائق ثابتة ، والقضايا البديهية قضايا صحيحة
صادقة ، وكل ما يتصل بالبديهيات أو الحسيات ، اتصال النتيجة المنطقية بالمقدمات
يشارك فى تلك الصحة ، ويقاسم فى هذا الصدق ، وهذا هو صميم التحقيق العلمى
فهو ربط الفروض العلمية أو الفلسفية بالقضايا البديهية أو الحسية بحيث ينزل منها
منزلة النتيجة من مقدماتها الأساسية .

العلم والفلسفة إذاً تفكير ، والتفكير عملية اكتشاف وهي متممة لعملية الإدراك الحسى ، فإذا كان الحس يكشف لنا عن أشخاص الحيوان والنبات والجماد ، فإن عملية التفكير ثم هذا الكشف ، فترينا حقائق هذه الأشياء ، والصلات الخفية التي تنبث في جنبات السكون وشعابه ، وتربط بين شتى عناصره وأشياءه ، وتمكننا بصورة تدرىجية من رؤية هذا الوجود على حقيقته كونا هائلا متشعبا ، وليكنه متماسك خاضع فى كل حركانه وسكناته لنظم دقيقة ثابتة ، ولبس معنى ذلك أنها قد أتمت عملها ، فأصبح الوجود يادى الأسرار للعقول والأفكار ، وليكنها تسير فى هذا الطريق قدما ، بخطى وثيدة وليكنها موفقة ناجحة .

هذه العملية إذاً عملية رؤية ، وليكن للنواميس العامة ، للأشخاص الأشياء وأعيانها ، وهي أيضا عملية استيثاق واستيقان ، فالفكر العلمى لا يكتفى بما يسنح لمخاطره من أفكار ، بل يثنى بعد ذلك منتبها مستوثقا من صحة ما يرى ، فإذا لم يبق لديه شك فى صحة وحى قريحته ، وسانحة خاطره ، وأيقن أنه قد رأى من الوجود صفحة حقيقية كانت خافية أحسن بأنه قد باغ غايته ، وانتهت مهمته .

ظهرت عمالية التفكير الفلسفى والعلمى ؟ وكان طبيعيا أن تؤتى ثمارها ، وأن تتوالى فوائدها وتكاثر ، وليكن التفكير شىء ، والنتائج شىء آخر ، وكل لبس يصيب هذه الحقيقة ، يعود على البشرية بشر ثقافى مستطير .

وقد كنا عامدين حينما لفتنا الأنظار إلى أن انكسما ندر وانكسما نيس لم يرث كل منهما عن سابقه ، سوى مبدأ التفكير ، وأنه احتفظ لنفسه فى الوقت ذاته بالحرية التامة إزاء النتائج التي وصل إليها ، ولهذا رفضها بعد التفكير ولما وصل

إلى نتائج مخالفة لها أعلنها دون تهيب أو تردد ودون أن يرى في ذلك عقوقاً لأستاذه ، أو تهاوناً في حقه .

التفكير والنتائج التي يصل إليها التفكير حقيقتان متباينتان : فالتفكير عملية نفسية ، والنتيجة فسكرة أو مبدأ أو ناموس وتتجمع النتائج وينضاف بعضها إلى بعض فتشمل فلسفة خاصة كالفلسفة أفلاطون وأرسطو ، أو علماء معيناً كالمهندسة مثلاً وواضح أن التفكير هو الذي يصل بنا إلى النتائج . فما النتائج إلا الحقائق الكونية التي ينتهي بنا التفكير إلى رؤيتها وافتراضها وتحقيقتها تحقيقاً منطقياً كما سبق الإشارة إليه .

وايست القيمة العليا للنتائج ، ولكنها للتفكير ذاته ، وما دامت الشعوب تحتفظ بفكرة التفرقة بين التفكير والنتائج واضحة صريحة وتولى التفكير ما يستحق من تقدير عال فإن الفلسفة والعلم يظلان في حياة مزدهرة ، فتتوالى الكشوف ويظهر كبار العلماء والفلاسفة ، أما إذا اختلط الأمر فظن الناس أن الفلسفة والعلم هما تلك النتائج التي وصلنا إليها لا التفكير الحر المستقل الذي يؤدي بنا نحوها ، فإن عصر الركون والجود والمقم يحل ويطول أمده .

والواقع أن الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني قد ظلوا في حالة نشاط فتتالت البحوث وتعددت الكشوف الفلسفية والعلمية منذ عهد طاليس إلى عهد أرسطو لأن الجو الثقافي اليوناني كان محتفظاً بالتفريق بين التفكير ونتائج التفكير وكان يعد الفلسفة هي التفكير نفسه فظل التفكير الحر المستقل قائماً يؤدي عمله بنشاط وإقدام ، وما هي إلا أن تملك الناس الإعجاب بفلسفة أرسطو فرفعوا النتائج التي وصل إليها ونظامها فوق قدرها ووصلوا بها إلى درجة التقديس ، وعدوها صميم الفلسفة وجعلوا مهمة الدارس الإمام بها حتى مات التفكير الحر المستقل

الذي نعمت به اليونان طويلا ، وانقضى عصر الكشف والإنتاج العلمي والفلسفي وسادت آراء أرسطو في الغرب والشرق مما منذ ذلك الحين إلى عصر النهضة الأوروبية .

وتزداد خطورة الموقف إذا عرفنا أن طرق التفكير العلمي الاستقرائي لم تكن قد اكتشفت بعد فكانت البحوث الطبيعية قائمة على أسس نظرية ، لا تجريبية . ولهذا كان الكثير منها فاسداً غير صحيح ولا مستقيم ومع ذلك دان الناس لها بالطاعة في القرون المتوسطة .

ولكن الحال تغير في عصر النهضة : فبعد بعث الآداب الإغريقية والرومانية آذنت حياة التقليد بالمغيب ، وذلك أن الناس كانوا إذ ذاك مقلدين لا مفكرين فكانوا يتداولون صورة لفلسفة أرسطو دون أن يجروا على مناقضتها أو التفكير الحر المستقيل في شيء مما يدخل في نطاقها . ولكنهم بعد أن تدارسوا الفلسفة والعلوم والآداب الإغريقية استيقظت فيهم روح فلاسفة الإغريق وعلمائهم فتمردوا على فلسفة أرسطو وصمموا على الإقدام على ممارسة التفكير الحر المستقل ، ومن ثم ظهرت طلائع العلم والفلسفة وأخذت ثمرات البحوث تترادف حتى تكونت العلوم في صورتها الحالية ، واستمرت روح البحث الحر سائرة في طريقها إلى يومنا هذا . وأدرك الناس نهائياً أن القيمة العليا هي للتفكير نفسه لا للنتائج .

وقد كان لهذا أثره في عالم التربية ، فقد ظن الناس في عصور التقليد أن التربية هي التحصيل لا التفكير في الفلسفة والعلم والأدب فمكفوا على تحصيل تلك العلوم والمذاهب الفلسفية ، ولكنهم ما كادوا يستيقظون من غفلتهم هذه ويرون أن التفكير هو القيمة الإنسانية العليا التي يجب أن تتحلى بها البشرية حتى انتقضوا على النظرية التربوية القديمة ، وشرعوا يتخذون من التربية

أداة للتدريب على التفكير في مختلف العلوم . وقد وقع فلاسفة العرب أنفسهم في هذه الغلطة ، فقابلوا الفلسفة اليونانية بروح الإكبار والإعجاب كما لاحظ ذلك المرحوم الشيخ محمد عبده . وأولوا نتائجها ثقتهم وعاملوها بروح التقليد بوجه عام . ولكن لا ينبغي أن يفتى عن الأذهان أن هناك عدداً غير قليل من أولئك الفلاسفة تحرروا إلى حد غير قليل من ربقة الفلسفة اليونانية ووضعوا لأنفسهم مذاهب خاصة ، قد تختلف في صورتها العامة عن الفلسفة الأرسطية وسواها ، وليكنها تستمد عناصرها من محيط الفلاسفة اليونانية الفسيح . على أن الثورة ضد الفلسفة اليونانية التي عرفتها أوروبا في مطلع عصر النهضة لها ما يماثلها في الممالك الإسلامية : فالغزالي يمثل روح الثورة ضد تلك الفلسفة وكتابه تهافت الفلاسفة حملة هنيئة عليها .

ومهما يكن من شيء فالخلط بين التفكير ونتائجه في الشرق والغرب والاهتمام بالنتائج لا التفكير الحر المستقل كان له في الشرق والغرب أسوأ الآثار الفكرية وقد كان أفلاطون هو أول من بذل جهداً قويا متواصلا لإثبات أن الفلسفة هي السعى وراء الحقيقة والتفكير المستمر من أجل الوصول إليها لا تلقين نتائج البحوث التي ينتهي الفلاسفة إليها .

والواقع أنه لا يوجد معرفة تستحق أن تحمل اسم العلم عن طريق التلقين ولا بد لكل قضية أن تمر أولاً بجميع أطوار عملية التفكير ليحقق لها أن تحمل اسم العلم عن جدارة واستحقاق . فلا بد أن يكون شك تم تفكير يعقبه دور يرى فيه المفكر الفكرة الجديدة تستطع في الأفق . فهذه الرؤية الذاتية هي الخطوة الأولى الأساسية في عملية الإدراك والمعرفة ولا بد أن يتلو ذلك تحقيق هذه الفكرة وتمحيصها فيدشك فيها ما وسعه الشك ويبحث عن الدلائل التي تؤيدها أو

تناقضها حتى إذا تهافتت كل فكرة معارضة وتظاهرت الدلائل على صحتها قبلها وآمن بها . فاذ ذاك واذ ذاك فقط يكون علم وتكون معرفة .

أما تلقين الأفكار وإيداعها الحافظة فليس علماً ولا معرفة ، فان من يتلقى آراء الغير لم ير بنفسه ولم يستوثق ، ولا علم إلا لمن يرى ويستوثق . وينبغي أن نتذكر أننا نسير في كل ذلك على ضوء معنى كلمة علم . فأهم خصائصه : أنه رؤية يقوم بها الفرد بنفسه ، وأنه رؤية مصحوبة بيقين أو ثقة ، واليقين أو الثقة هما لنتيجة الحتمية للدلائل التي تمضد المبادئ العلمية والتي نصل إليها في مرحلة التحقيق العلمي ، وما انتفع بهذا المبدأ أحد مقدار ما انتفعت به التربية في عصرنا الحديث . فقد أدرك المرءون أن المعرفة هي التفكير والوصول إلى النتائج عن طريق التفكير ، فأصبحت التربية عند المرءي الحديث إعداد المادة وحمل الناشئ على التفكير فيها واستنباط المبادئ التي يمكن أن تقرأ في ثناياها ، وعلى هذا الأسلوب يجرب العمل في علوم الطبيعة والكيمياء وطبقاً له تستنبط قواعد النحو وأصول الرياضة وغيرها من العلوم .

الفصل الثالث

أسس التفكير الفلسفية

الثقة بالعقل

التفكير إذاً هو أهم ما جاءت به الحركة العقلية التي بدأها طاليس ، ولكن هذه الحركة قررت أيضاً عدداً من المبادئ الفكرية الهامة منها مبدأ الاعتماد على العقل في فهم الوجود والثقة بالنتائج التي يصل بنا إليها في هذا المجال ، وهذا مبدأ جديد وخطير . أما خطره فلا مكان للشك فيه . فما كان للفلسفة والعلم أن تظهر طلائعها وتتوالى كشوفهما لولا الثقة بقدرته العقل الإنساني على الوصول إلى حقائق الوجود ونواميسه ، وأي ضعف أو فتور يصيب هذه العقيدة لا يلبث أن يبدو أثره في ركود الحركة العقلية أو وقوفها ، وأما جدته فواضحة مما أسلفناه في صدر بحثنا هذا . فالعروف أن العالم في بلاد اليونان وغير بلاد اليونان كان حتى عهد طاليس يخضع لعقائد وآراء متوارثة ذات صبغة دينية ، وكان السائد على الأذهان بوجه عام هو أن الكون كتاب خفي غامض لا يفك رموزه إلا الديانات والتقاليد ، وأن العقل أعجز من أن يصل إلى أسراره وغوامض سننه ونواميسه وهذا في الواقع إيمان بنظرية معرفة خاصة ، وهي التي تقرر أن سبيل العلم الأمين هو الدين لا النظر الفلسفي ، الذي قد يحاول العقل ، فظهور طاليس في هذا الجو التقليدي وشكّه وإقدامه على التفكير والبحث عن حقيقة هذا الوجود بالنظر العقلي والبحث تقرير عملي لمبدأ جديد ، ونظرية معرفة لا عهد للناس بها من قبل ، وهي التي تقرر أن العقل يمكن أن يسبر غور الوجود ويصل إلى حقائقه

ونواميسه الخفية ، وهما يكن من شيء : فقد ظهر مبدأً ثقافى جديد فى بيئة الإنسان العقلية ، وصار لا مفر له من أن يخوض غمار نضال طويل ضد المبدأ القديم السابق الذكر ، وهو صراع فلسفى سلاحه الحججة والبرهان ، وله تاريخ طويل ذو معالم واضحة ، وليس فى مقدورنا فى هذا الفصل أن نزيد على مجرد الإمارة بهذا التاريخ والمسع إلى الناحية الفكرية منه ، ولنبدأ بالتاريخ .

وأول ما يبدو لنا إذا ألقينا نظرة تاريخية على هذا النضال الناشب بين العلم والفلسفة من ناحية ، وبين الدين من الناحية والتقاليد من الناحية الأخرى هو ما حدث فى اليونان مما سبقت الإشارة ، فقد كان اليونانيون يستندون فيما يؤمنون به من عقائد ويميشون فى ظله من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية إلى الدين والتقاليد ، فلما ظهرت الحركة الفكرية التى ابتدأها طاليس أخذ الحال يتغير ، فتمت كانت هذه الحركة محاولة صريحة للتخلص من أسر التقاليد واعتماداً على العقل وحده ، وأول ما يظهر فى مثل هذه الحالة هو ظاهرة الشك فى التراث الثقافى ، فإذا أخذت العقائد القومية تتداعى خلفت وراءها فراغاً كبيراً ، وطبيعى : أن يملأ هذا الفراغ على نحو ما ، وهنا يضمف سلطان نظرية المعرفة القديمة التى تحاول أن تقصر أسباب العلم على الدين والتقاليد ، وينشأ إيمان جديد بالعقل وقدرته على حل المشكلات النظرية والعملية ، ويظهر أثر هذا الإيمان فى نهضة فكرية فلسفية وعلمية قوية وقد قام بهذا العمل الإيجابى فى بلاد اليونان طاليس وتلاميذه ، ثم من جاء بعدهم من كبار الفلاسفة ، وقد جاءت كشوفهم العلمية والفلسفة مشجعة ، فازداد الإيمان بقدره العقل على الكشف والوصول إلى الحقائق الكونية بجميع أنواعها ، ومع ذلك فلم يخل تاريخ هذه

النهضة العقلية من اضطرابات ، فمصر السوفسطائيين يمثل حقبة من التاريخ ،
تزعزع فيها الإيمان العام بقدره العقل على الوصول إلى الحقائق ، ولكنه عهد لم
يطل أمده ، فلم يلبث سقراط وأفلاطون أن أرجعا للناس ثقهم بالعقل وقدرته .
أما الحادث التاريخي الكبير الذي وضع حداً لهذه النهضة ، فهو اعتناق أوروبا للدين
المسيحي . وسبب ذلك واضح ، فالدين والفلسفة يقومان كما أسلفنا على نظريتين
مختلفتين من نظريات المعرفة . فالوحي لا العقل في نظر الديانات هو مصدر
المعنى الصحيح ، واعتناق المسيحية تسلم بهذه النظرية . ولا نحاول الآن أن
نتعمق في دراسة الموقف ، بل نكتفي بتسجيل هذا الحال كاتصار لأحد المبدأين
على صاحبه بعد عصر طويل من السيادة والاستقرار .

فإننا انتقلنا إلى عصر النهضة رأينا التاريخ يجدد نفسه ، فقد كانت أوروبا
خلال القرون المتوسطة ترجع إلى المسيحية في عقائدها ونظمنا وحياتها الفردية
والاجتماعية ، ولم يكد الدور الذي قامت به الفلسفة في ذلك العهد يز يد عن خدمة
الدين وتدعيم عقائده ، فلما بمثت الآداب الإغريقية في بداية النهضة كان بعضها
نذيراً بانقضاء هذا الجو الرأكد وحلول عصر ثقافي جديد . وما كان لنا أن
نتوقع غير هذا . فأهم خصائص التراث اليوناني هي الاعتماد على العقل والإيمان
بالعقل . والثقافة اليونانية القديمة تستميل العقول البشرية وتتحداهما وتدفعها إلى
التفكير ، وفي مثل هذه الظروف يستيقظ العقل من سباته ، وينشط من عقاله ،
ويستشعر الثقة بنفسه ، ويتقدم للعمل غير هباب ولا وجل . والواقع أن أثرها
الأول كان ثقة جزئية متحدية . ففكرو النهضة لم يلبثوا حينما اشتعلت أفكارهم
بنار الحرية الفكرية أن هاجموا الثقافة اليونانية ، فانها لوا على منطق أرسطوا وما

وما كتبه في الطبيعة والميتافيزيقيا وغيره بالتجريح ، ثم دب فيهم ما كان يدب في نفوس فلاسفة اليونان من روح الثقة بالنفس والايان بالعقل ، فأقبلوا على دراسة الطبيعة وما وراء الطبيعة ، دراسة موضوعية جديدة وضعت أساس العلوم والفلسفة الحاضرة ، وهكذا تحول الحال ، وبدأ الايمان بالعقل يتأسس ، ويسترجع ما كان له من سلطان في عهد اليونان القديمة ، ويشهد أزر النهضة العلمية والفلسفية الحديثة .

ولم ينته الأمر في هذا الدور كما انتهى في عهد اليونان إلى مجرد الاعتراف بقدرة العقل ، وافساح الطريق للفلاسفة ، بل أدى تطور الصراع بين العلماء من ناحية والكنيسة من الناحية الأخرى إلى ما هو أهم من هذا ، فالايان بقدرة العقل شيء ، والاعتراف بحرية العقل وحق الانسان في التفكير شيء آخر ، وقد اشتد الخلاف بين الكنيسة والعلماء حول المبدأين معاً ، ثم انتهى بالتراجع في الميدانين ، والتسليم بقدرة العقل وحق الانسان في التفكير الحر ، وهو الحق الذي ضمن الأمن والسلامة للعلماء والفلاسفة ، ومكّنهم من مزاوله عملهم في جو خال من الخوف والرهبة .

والواقع أن الناس لم يلبثوا أن شعروا بأن الصراع يدور في حقيقة الأمر حول شرعية العلم والفلسفة ، وهل يمكن اعتبارها من الأعمال المشروعة التي يسمح بمزاوتها في المجتمع ، أم هما من الأعمال التي يجب حظرها ، ولا يجوز تماطياها فكان طبيعياً أن تكون خاتمة هذا الصراع الدامي الذي استمر حقبة طويلة الاعتراف العام بشرعية التفكير ، والتسليم بحرية العقل وجعلها من حقوق الانسان ، وإثباتها في صدر الدساتير الديمقراطية .

ولكن ما هو المراد بالثقة بالعقل ، فهذا معنى لا يزال غامضاً ، وفي حاجة

شديدة إلى كثير من التحليل الدقيق الذي يكشف عن عناصره ، ويجدد فكرته العامة تحديداً وافيةً . وأول ما يجب أن نتذكره في هذا الصدد هو أن العقل يقوم بعملية خاصة ، وهي عملية التفكير ، التي عنينا بتحليلها في الفصل السابق ، وهي عملية تتركب من عمليات متعددة ، كما سبقت الإشارة إليه ، ولكن أهم مراحلها هي مرحلة الكشف . وهي المرحلة التي يرى فيها العقل ناموساً كونياً جديداً ، ومرحلة التحقيق التي يحاول فيها أن يستوثق من صحة ما يرى .

والكون كما سبقت الإشارة ، قد تبدو بمض مظاهره للحواس كالجبال ، والأنهار ، والأشجار ، والمدن ، وأشخاص الانسان والحيوان ، ولكن كثيراً منها خفي غامض ، بعيد عن متناول الحس كالفوانين الرياضية ، والطبيعية ، وأسرار ما وراء الطبيعة ، وهذه النواميس الكونية هي التي تتكشف للعقل في مرحلة الكشف فيراها ويشعر بها ويندفع بعد ذلك إلى تحقيقها . والثقة بالعقل معناها أن العقل في عملية التفكير التي يقوم بها قادر حقا على رؤية هذه النواميس والكشف عن هذه الأسرار ، وعلى إثبات صحتها ، وأنه لهذا السبب يقيننا عن الرجوع إلى غيره من مصادر العلم والمعرفة الخارجية ، الثقة بالعقل هي بالاجازالايان بأنه ليس كما كان يتهمه القدماء ، وعصور التأخر ، عاجزاً حسيراً ، أمام حقائق الكون بل هو قوى قادر على إدراكها ، والوصول إليها ، والذين ينزعون الثقة من العمل يرمونه في العادة بالعجز عن الوصول إلى هذه الحقائق ، ويتهمون النتائج التي يصل إليها ويزيفونها ، وهم طوائف متعددة ، فمنهم من ينكر إمكان العلم على الإطلاق ويرى أن عجز العقل معناه استحالة المعرفة ، ومنهم من يذهب إلى أن هناك طريقاً آخر للمعرفة وهو طريق الكشف أو الإلهام أو نحو ذلك ، وسننتصدي فيما بعد لهذا الرأي ، ونحاول أن نلقى عليه شيئاً من الضوء ، أما الآن فننتقل إلى موضوع

آخر تعدد دراسته تمهيداً طبيعياً لدراسة الرأى السابق الذ كر دراسة مستنيرة .
ونعنى بذلك بيان الموضوعات التى يتصدى لها العقل وتحديد ما يمكن وما لا يمكن
للعقل أن ينجح فى دراسته .

والواقع أن النضال الذى استبحر حول قدرة العقل لم يحدد الموقف فى بداية
الأمر تحديداً واضحاً ، فهل كان الشك يدور حول قدرة العقل فى جميع الموضوعات
التي يتصدى لدراستها أم كان يدور حول قدرته فى موضوعات خاصة . تركت هذه
الأمر فى البداية غامضة ، ثم لم يلبث الموقف أن اتضح ودخله ضرب من التحديد ،
وليس فى مقدورنا الآن أن ندرس هذا الموضوع دراسة مستقصية ولا حاجة بنا الآن
إلى ذلك ، فيكفينا منه ما يمس معضلتنا الأساسية ، ولهذا تقتصر على الملاحظات
القليلة الآتية :

الكون بجملته هو موضوع الدراسات العقلية المختلفة ، والكون فى رأى
الكثيرين ينقسم قسمين كبيرين يحتمل أحدهما الزمان والمكان ، ويبدو للحس
والعيان ، وهو الطبيعة الحية ، وغير الحية ، والثانى هو عالم ما وراء الطبيعة
وهو كون لا يدركه الحس ، ولا يحل فى زمان أو مكان ، وقد حاول العقل البشرى
أن يدرس هذه الموضوعات جميعاً فتصدى لدراسة الطبيعة من جميع نواحيها
وبجميع فروعها وشعبها ، فهو مره مجرد الامتداد ويدرس الأشكال المنتظمة ،
التي قد يأخذها الامتداد ، فينشأ من ذلك علم الهندسة النظرية ، وأخرى يأخذ
الطبيعة كما هى ، فيدرس النبات والحيوان والجماد ، فينشأ من ذلك علوم الطبيعة
والكيمياء والحيوان والفلك والتشريح ، ونحو ذلك .

وكما اتجه إلى دراسة الطبيعة ، اتجه أيضاً إلى دراسة ما وراء الطبيعة فقاده
النظر فى الطبيعة أحياناً إلى نتائج إيجابية كوجود الإله ووجود الجوهر العقلى ونحو
ذلك ، وقد اختلفت طرقه فى دراسة الطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، ولسكنها جميعاً

تأخذ صورة واحدة عامة ، والتفكير بوجه عام هي عملية عقلية تفضى إلى رؤية فرض والاستيثاق من صحته ولكن الاستيثاق أو التحقيق العلمى كما سبقت الإشارة بأخذ صورتين مختلفتين فأحياناً يتم إثبات الفرض بارجاعه إلى بديهية من البديهيات مباشرة أو بالواسطة كما هو الحال فى الرياضة ، وفى كثير من فروع الفلسفة ، وأحياناً يثبت الفرض بالتجارب والملاحظات الحسية المصادقة للدلالة ، ويحدث هذا فى العادة فى العلوم الطبيعية ، وقد جرى الناس على البحث فى الطبيعة بأسلوبها الخاص ، وفى الرياضة بأسلوبها الخاص ، وفى الميثاقين يقيا بالأسلوب الاستنباطى المستعمل فى الرياضة ، وقد حصلت الانسانية على نتائج مختلفة من هذه الدراسات واستخدمت الكثير منها فى حياتها العملية نفسها ، فاهمى الشك فى قدرة العقل إذا وقد استطاع أن يصل النظريات الرياضية والقوانين الطبيعية المعقدة السهلة فى حياة البشرية فى الشرق والغرب . وما مجال هذا الشك ، أهتاك شك فى قدرته على التفكير الرياضى أو الطبيعى أو الفلسفى ؟ وما أساس هذا الشك ، وكيف يبرر ؟

لا ريب أن الشك فى قدرة العقل بعد هذا الانتاج العلمى والفلسفى الغزير يبدو سخيفاً مضحكاً ، ولكن الدراسة الفلسفية لهذا الموقف قد أسفرت عن نتائج تدعو إلى الدهشة والمعجب ، وهى مع ذلك غير ضعيفة أو واهية ، وقد بدأت الفلسفة الحديثة بالإيمان بقدرة العقل فى جميع ميادين البحث ، ولم يساور ديكارت ولا بيكن شىء من الشك فى هذا ، ولم يزد هذا أو ذاك عن البحث عن أسلوب جديد للتفكير واثقاً كل الثقة بأن هذا هو كل ما يحتاجه العقل ليصل إلى الحقيقة فى أى مجال فلسفى أو علمى ، ولكن الفلسفة الانجليزية التى بدأها لوك ، وبلغت أوجها على عهد هيوم ما كادت تدرس الأفكار الانسانية الحسية

وغير الحسية ، وتدرس مدى ما تتمتع به من صحة ، حتى انتهت إلى النتائج السلبية التي تضمنتها فلسفة هيوم ، والتي أدهشت الناس جميعاً ، فقد استطاع هيوم أن يؤيد قضية عجيبة تقرر للناس أنهم مخدوعون فيما يخيل إليهم أنهم يعرفونه من محسوسات وقضايا علمية وفلسفية ، ولكن رد الفعل كان قوياً وسريعاً فقد ظهر كانت وانصرف إلى دراسة موضوع المعرفة ، وانتهى من دراسته إلى اثبات صحة العلوم الرياضية ، وإن كان قد أنكر صحة الميتافيزيقيا .

فاذا تركنا الفلسفة الأوروبية وانتقلنا إلى محيط الفلسفة العربية كان أعلى صوت نسمة في هذا الميدان هو صوت الغزالي ، وهو مهم لنا من ناحيته السلبية والايجابية ، ويجب أن نتذكر أن الغزالي من أكبر من ظهر في تاريخ البشرية من محي الحقيقة وطلابها الخالصين ، فقد طلبها في العلوم الدينية من كلام وفقه ، وسواها وطلبها في الفلسفة من منطقي وميتافيزيقا وأخلاق ، وطلبها في آثار المتصوفة ، ومأثور أقوالها وطلبها في كل أفق دون أن يألوا في طلبها جهداً ، أو يدخر وسعاً . وحديثه في سميه وراء الحقيقة حديث شائق جداً ، قصه هو بنفسه ، وموجز قصته : أنه بعد أن أتم دراسة العلوم الدينية انتقل إلى دراسة الفلسفة ، ثم تلا ذلك دور شك انهدمت فيه عقائده ، وصار لا مفر له من السعي في طلب الحقيقة إذا أراد أن ينقذ عقله وروحه من آلام الشك وسعومه . وهنا اتجه إلى الفلسفة ، فعرض في كتاب سماه « مقاصد الفلاسفة » مشاكلها الأساسية بمباراة واضحة ، وترتيب منطقي محكم ، وبعد أن تم له ذلك اتجه إلى أمر آخر ، اتجه إلى إثبات أن الفلسفة لا تستطيع أن تصل بنا إلى ما نظماً إلى معرفته من حقيقة الكون وسر الوجود ، وأودع نتيجة جهوده في كتاب سماه « تهافت الفلاسفة » وهذه هي النتيجة السلبية لمذهب الغزالي في المعرفة ولكن

يجب ألا يفوتنا أن الغزالي إذا كان قد اتهم قدرة العقل البشرى وعزا إليه العجز فان اتهامه لم يكن عاما ، فقد صرح بأن العقل قد نجح في الوصول إلى الحقائق الرياضية والعلمية ، ولكنه أنكر قدرته على حل لغز الوجود ، والوصول إلى عالم ما وراء الطبيعة ، وهي نتيجة تشبه في كثير من الوجوه نتيجة كانت الفيلسوف الألماني المعروف .

أما الناحية الايجابية لمذهب الغزالي فهي وليدة دراسته الدينية ، فقد درس علم الكلام ، ودرس مذهب التصوف ، وانتهى من دراسته هذه إلى أن التصوف هو الطريق الموصل إلى معرفة حقيقة هذا الوجود ، والفكرة العامة في هذا المذهب : هي أن المعرفة الحقة نتيجة الإدراك المباشر ، لا النظر العقلي .

والتصوف : هو السعي إلى الوصول إلى إدراك ما وراء الطبيعة إدرا كامباشراً وقد مارس الغزالي حياة المتصوفة ، ليصل هذا النوع من أنواع المعرفة ، ويؤخذ مما تفرق في ثنايا كتبه أنه وصل إليها ، أو إلى قدر منها ، وخلاصة القول : أن الغزالي والفلسفة النقدية يتفقان على أن النظر العقلي عاجز عن الوصول إلى عالم الحقيقة ، ولكن الغزالي يذهب إلى إمكان الوصول إليها عن طريق التصوف ، ويرى الغزالي والمتصوفة بوجه عام ، أن هذا هو الطريق الذي سلكه الأنبياء فأفضى بينهم إلى المعرفة ، وهو عندهم شيء آخر مخالف للنظر العقلي ، وقد بذل الغزالي جهداً كبيراً في شرحه وبيان حقيقته في كتاب الأحياء وسواه ، وهو بالأجمال ضرب من التدريب الروحي ، ينتهي بانكشاف عالم ما وراء الطبيعة ورؤيته رؤية مباشرة بدرجات تختلف في الوضوح ، وهذا الإدراك بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة ، كالحس بالنسبة لعالم الطبيعة ، ففي كليهما يدرك الانسان الوجود مباشرة .

وقد كانت هذه النظرة قديماً تقابل بالاستهجان من دعاة العقل والنظر ،
ولكن الدراسات الفلسفية والنفسية الحديثة قد غيرت الموقف ، فبدأ المفكرون
يتحولون عن جمودهم القديم ، ولا يستبعدون وجود مصدر آخر للمعرفة غير العقل
والنظر ، وقد كثر الآن أنصار هذا الرأي المحدثون في أوربا نفسها ، وبدءوا يمتدحون
إلى جانب النظر العقلي الذي ظهر في الغرب - بطريق الإدراك المباشر الذي ظهر في
الشرق في صورة دين وتصوف ، وبداهم أن من خطأ الرأي وخطئه : ألا يتدبروا الأمر
ويدرسوا طبيعة هذا الطريق ، لا سيما بعد أن قاد العقل أتباعه إلى هذه الفوضى
العقلية في النظريات الكونية والأخلاقية والسياسية ، ثم إلى هذا الصراع الدامي
المتجدد بين ملايين البشرية ، وقد بدأ عدد من كبار المفكرين في أوربا ينادون
بضرورة الانتفاع بهذا الطريق الذي قاد أهم الشرق وشعوبه ، وأعطاهما ثقة
وإيماناً وسلاماً . ومهما يكن من شيء : فالموقف موقف خلاف بين النظر العقلي
والإدراك المباشر ، أو المعرفة القائمة على الإدراك المباشر ، والمحدثين من أنصار
الإدراك المباشر لعالم ما وراء الطبيعة منزع جديد في عرض مذهبهم المذكور ،
يشبهون فيه الانتقال من النظر العقلي في معرفة ما وراء الطبيعة بالانتقال من النظر
العقلي إلى الحس والمشاهدة في دراسة الطبيعة نفسها ، ذلك الانتقال الذي بدأ
في أوائل عصر النهضة ، وهي نظرة جديدة طريفة ، نعرض خلاصتها فيما يلي :

كان فلاسفة اليونان في دراساتهم الطبيعية والميتافيزيقية يستخدمون أسلوب
البحث الاستنباطي الذي سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة ، وهو أسلوب يتخذ
من بعض القضايا البديهية ، أو التي يظن أنها بديهية أساساً يبنى عليه فيستنبط
منها ويعمّن في استنباطه ما اتسع له المجال وانفسح أمامه الطريق ، وأهم خواص
هذا الأسلوب أنه عقلي لا تجريبي ، فالقضايا البديهية وما مائلها لا تستنبط من

تجارب حسية ، كما تستنبط القوانين الطبيعية ، ولكنها تقرر دون رجوع إلى
حس أو مشاهدة ، ثم تتولد منها نتائجها ، والمذاهب الفلسفية أو العلوم الطبيعية
التي تنشأ على هذا النحو ليست وليدة الحس أو المشاهدة ، ولكنها نتاج العقل
وحده ، وهكذا كانت فلسفة أرسطو ونظرياته الطبيعية ، فلما حل عصر النهضة
شعر الرعيل الأول من العلماء والفلاسفة بأن هناك شيئاً من الشذوذ في
محاولة معرفة الطبيعة دون الدنو منها وملاحظتها وتمسكهم أحساب قوى بأن
هذا النوع من الدراسة يجب أن يقوم على أساس ملاحظة الظواهر الطبيعية
المختلفة لاستخلاص نواميسها العامة والاستيثاق من صحتها ، وقد كان «بيكن»
أول من وضع أساس المنهج التجريبي الجديد ، كما كان غاليليو في طبيعة الذين
لجئوا في دراسة الطبيعة إلى أساليب الملاحظة الحسية ، وما أن تم للعلماء تحديد
أسلوب البحث التجريبي وتيسر استعماله في بحوثهم الطبيعية ، حتى دخلت تلك
الدراسات في عهد جديد ، فتوالى الكشوف ، ووضعت أسس العلوم الطبيعية
المختلفة ، ويمكننا أن نقول بوجه الاجمال : ان العلوم الطبيعية ولدت يوم
حاول الناس من الأساليب الاستنباطي الذي يحاول أن يحدد أنواع الموجودات
ويقرر صفات الكائنات في غيبتها ، وبمزل تام عنها ، إلى الأسلوب الاستقرائي
الذي تولى عليها المشاهدات الفروض العلمية ، فيحققها بالتجارب الحسية ،
لابالبراهين النظرية ، فدراسة النبات مثلاً أصبحت تقوم على مشاهدة النباتات
المختلفة ، وتصنيفها ، والبحث عن النواميس الطبيعية الخاصة بكل نوع منها عن
طريق المشاهدة الحسية والتجارب العلمية بعد أن كان النظر العقلي يقوم في ذلك
بالدور الأكبر ، وكذلك الفلك وسواه ، والحادث الجديد : هو اتخاذ الملاحظة
الحسية دعامة لتلك الدراسات ، فهي التي أكتسبت هذه الدراسات صبغتها

العلمية ورفعتها إلى المكان الرفيع الذي تشغله الآن في تقدير العلماء وغير العلماء .
تعتمد الدراسات الطبيعية الحديثة إذاً على المشاهدة ويعتقد علماء الطبيعة أنهم
بالعدول عن أسلوب الاستنباط الفلسفي إلى أسلوب المشاهدة والاستقراء قد
كسبوا كسباً كبيراً ، فقد ضمنوا بذلك صحة ما قد تصل إليه بحوثهم من
نتائج ، واستطاعوا أن يقدموا نتائجهم وتجاربهم معاً ، فتسنى لكل دارس أن
يختبر تلك النتائج في ضوء تلك التجارب ، فهل من الممكن أن يحدث مثل هذا في
دراسة ما وراء الطبيعة ، هل يمكن أن يحدث انتقال مماثل من أسلوب الاستنباط
إلى أسلوب المشاهدة في معرفة ما وراء الطبيعة ، هل من الميسور أن تتحول
الفلسفة من دراسة نظرية إلى دراسة تجريبية ، فتتحول من فلسفة إلى علم قائم
على أساس المشاهدة ، كما حدث في الدراسات الطبيعية . قد يبدو باديء ذي بدء
أن هذا غير ممكن فيما وراء الطبيعة ، فإن الطبيعة بادية للعيان ، فنحن نرى
الأشجار والأنهار والحيوان والأفلاك ، ونستطيع أن نلاحظها ملاحظة حسية
وهذا هو كل ما نحتاج إليه لاستخدام الأسلوب الاستقرائي الذي يستمد
الفروض من الملاحظات الحسية ، ويحتملها بالتجارب الحسية . ولكننا لا نرى
ما وراء الطبيعة ، ولا ندركه بأية حاسة ، فكيف يمكن أن نعدل في دراسته عن
أسلوب النظر العقلي إلى أسلوب المشاهدة .

لا جدال في أن العدول في دراسة الطبيعة عن أسلوب الاستنباط إلى
أسلوب التجارب والمشاهدات قد رفع من قيمة النتائج ، وأحلها محلاً علمياً
رفيعاً ، وربما كان له مثل هذا الأثر في دراسة ما وراء الطبيعة ، ولكن المعضلة
الأساسية هي هل هذا ممكن ؟ .

وهنا يجيب الصوفية وأنصار مذهب الإدراك المباشر اجابتهم الحديثة فيقولون أن الدراسات الطبيعية لم تسم علما إلا بعد أن اعتمدت على أسلوب المشاهدة وان المعرفة بوجه عام لا تستحق هذا الاسم إلا إذا استمدت من المشاهدة وانه لا مفر لبحوث ماوراء الطبيعة أن تدرك هذه الحقيقة أما مسألة الامكان فليس عسيرة الحل كما قد يتوهم وليس الجواب عنها بالسلب كما قد يتوقع . ويكفي أن نذكر أن الدراسات النفسية قد ظلت زمنا طويلا ذات صبغة نظرية بحتة لنوهم القائلين بها أن استخدم أسلوب الملاحظة فيها غير ممكن ولكن البحوث التالية لم تلبث أن كشفت عن نوع آخر من الملاحظة وهو الملاحظة الباطنية التي لا تستخدم حاسة أو جارحة وقد أمكن استخدامها في دراسة الظواهر النفسية المختلفة من تفكير وتخيل ونحو ذلك كما استخدمت الملاحظة الحسية في دراسة الحيوان والنبات والارادة ونحوها وقد استخدم العلماء فعلا هذه الملاحظة في تلك الدراسة فجاءت بنتائج لا سبيل إلى تجاهلها أو الحط من قيمتها . هناك إذانوع من الملاحظة يذهب إلى ما هو أبعد من عالم الحس وهو عالم الظواهر النفسية أفلا يجوز أن تكون هناك ملكة أخرى تستطيع أن تذهب إلى أبعد من عالم الطبيعة كله .

ينذهب هذا الفريق من المفكرين والفلاسفة والصوفية إلى وجود هذه القوة النفسية ويؤيدون نظريتهم هذه بهذا العدد الجهم من الأنبياء والمنصوفة الذين ظهروا في العصور التاريخية المتعاقبة أما طبيعة هذه القوة فقد درسها وشرحها المتصوفة في جميع العصور وقد أفاض الغزالي في تحليلها في كتاب الأحياء وسواه وهي بالاجمال قوة إذا عني بتربيتها وصقلها انعكس عليها عالم ماوراء الطبيعة كما ينعكس عالم الطبيعة على حاسة البصر مثلا فهي إذا تدرك ماوراء الطبيعة ادراكا مباشرا كما تدرك الحواس عالم الطبيعة كذلك ، وهذه القوة هي مصدر آخر

من مصادر العلم . وتمتاز عن النظر العقلي بأنها إدراك مباشر لا نظر واستنباط ويرى بعض المحدثين من أنصار هذا الرأي أن هذا النوع من المعرفة يجب أن يسمى علما كما سميت بذلك الدراسات الطبيعية القائمة على المشاهدة فإنها تقوم على الأساس نفسه وأماما يتبادر إلى الذهن من أن هذا النوع من المعرفة خاص بطائفة من الناس على حين أن العلوم الطبيعية لا يختص بها فريق من الناس دون فريق فينقضه هؤلاء بأن هذا الطريق مفتوح أمام الناس جميعا ، وأنه ينضى لمن يسلكه إذا كان مخلصا صادق العزيمة ، غير منقوص المواهب إلى حالة الشهود والكشف المشار إليه آنفا . ومدد المتصوفة في كل عصر وأفق وصول غير مقطوع .

وهذا الصراع القديم المسمى بالصراع بين العلم والدين ليس في الحقيقة إلا صراعا بين طريقتين من طرق العلم طريق النظر وطريق الإدراك المباشر فالفلسفة بالنسبة لعالم ما وراء الطبيعة تمثل النظر العقلي والدين والتصوف يمثل الإدراك المباشر وقد سادت الفلسفة في الغرب كما كان من حظ الشرق أن يظهر فيه الأنبياء والمتصوفون وقد ظل الغرب بيون قرونا يمتدحون بطريق النظر العقلي ويعتصمون به ويمدونه مفخرة الغرب ويتحاشون الطريق الآخر وكثيرا ما كان من بين بواعثهم الصراحة أو الخفية أنه طريق شرقي ولكن ما أحدثته البحوث العقلية من فوضى في الميثاقين يبقيا والأخلاق والسياسة بل والعلوم الطبيعية نفسها وما ترتب على ذلك من صراع دام بين تلك المذاهب كالصراع الذي نشب بين الفاشية والديموقراطية والناسب الآن بين الشيوعية ونظام رأس المال قد حمل كثيرا من المفكرين على أن يمدوا النظر في الموقف وكان من نتيجة ذلك أن

زايدهم كثير من تعصبهم القديم فبدأ فريق منهم يرى في تناقض المذاهب الميتافيزيقية والأخلاقية والسياسية دليلاً على عجز العقل عن الوصول إلى الحقيقة وحاجة الإنسانية إلى الاستفادة من أساليب الإدراك الروحي المباشر .

وقد أخذت هذه النزعة صوراً مختلفة فمن مظاهرها نشوء ميل قوى نحو الدين والحياة الدينية حتى بين كبار المثقفين وقادة الفكر في الغرب ومن ثمرات هذه النزعة كتاب الأيات الشاعر الانجليزي الكبير الذي سماه « المجتمع المسيحي » .

وإلى جانب هذه النزعة يوجد في جو التفكير الفلسفي اتجاه قوى نحو المبادئ الدينية فقد نشط المذهب المثالي في أوروبا وأمريكا في السنوات الأخيرة بعد عصر طويل سادت فيه الفلسفة المادية والمذهب المثالي كما هو معروف نوع من الفلسفة النظرية تقرر المبادئ الدينية العليا بأدلة فلسفية بحثية وزعيم هذه الحركة في أمريكا الآن هو الأستاذ ايرنست هكنج .

أما الحركة الجديدة الطريفة قهرتم بالدين والتصوف كطريق من طرق العلم يختلف عن طريق الفلسفة والنظر فبينما يفكر الفلاسفة ويحسون سلسلة طويلة أو قصيرة من المقدمات ليصلوا إلى نتيجة لم يروها ولن يروها رؤية مباشرة إذا بالتصوف الذي صقلت روحه العبادات وحياة لزهة والتكشف يلمح هذه الحقيقة لمحا أو يراها مباشرة كما يرى الإنسان كل ما تقع عليه عينه من مظاهر الطبيعية . ومن هذا الفريق من المفكرين من بدأ يؤمن بهذا الطريق ويدعوا إلى سلوكه كجبرالدهيرد بل منهم أخذ فعلاً يسلك إلى العالم سبيل التصوف والتكشف . وآخر ما عرفته من أنبيائهم أن الأستاذ رادا كرشنان أستاذ الفلسفة الهندية باحدى جامعات انجلترا أنشأ معسكراً يجمع شتات هذا الفريق وأخذ يدرّبهم فعلاً

على حياة التصوف وكان من بين أفراد هذا المعسكر الأديب العالمي الشهير
الدس هكسلي .

ولست بحاجة إلى أن أقول أن هذا الذي حدث طرؤاً للمفكرين الأوربيين
هو الذي حدث للفزالي فقد انتهوا إلى مثل ما انتهى إليه من أن العقل وحده
لا يكفي ، وأن الطريق إلى المعرفة هو طريق الانقطاع إلى الله ، والتمسك
الإلهام منه ، وقد أقدموا على سلوك الطريق الذي سلكه الفزالي نفسه
للغاية نفسها .

٣ - النظم الكونية

تتجه الفلسفة والعلم معا كما سبقت الاشارة اليه إلى معرفة النظم الكونية ، ولا شك أن الفلاسفة والعلماء لم يفكروا في البحث عن هذه النظم إلا بعد أن أيقنوا أن الكون ليس خاليا من النظم وأن ما يحدث فيه من حوادث وكائنات يرتبط بعضه ببعض بروابط كونية وثيقة .

والواقع أن كل إنسان يأخذ في اكتشاف هذه الروابط في الساعات الأولى من حياته ثم يستمر بعد ذلك في عملية الكشف . فإذا كان الطفل يبدأ بأدراك ما يحيط به من أشياء ، فإنه لا يلبث أن يشعر بما بينهما من صلوات ، فيدرك أن النار تحرق وأن الريح تهز ذوائب الأشياء وأن الماشية تأكل البرسيم وغير ذلك من الروابط الأولية .

وأول ما يبدوننا من هذه الوجود هو الجزئيات المختلفة من أرض وسما وحيوان ونبات ، فهي أمور ظاهرة تقع عليها الحواس مباشرة ، فنحن نرى النجوم والبحار والجبال والأشجار والحيوانات التي تسكنها البيئة ، ولكن الكون يتألف من كائنات وروابط تربط بين هذه الكائنات : فالحصان مثلا يأكل البرسيم والأسد يفترس اللحوم والريح يسوق السحاب والأجسام تتجاذب والقمر يجذب مياه المحيط فيحدث المد والجزر وزوايا المثلث تساوي قائمتين .

وإذا كانت الأشياء نفسها ظاهرة للعيان فإن ما بينهما من روابط ليس كذلك ، فنحن لا نرى الجاذبية بين الأجسام ولا نرى المساواة القائمة بين مجموع زوايا

المثلث والزوايتين التائمتين لأن الجاذبية والمساواة نسبة خفية وإن كان من الممكن أن نرى طرفي النسبة .

والوقائع أن النسب التي تربط الأشياء بعضها ببعض كثيرة لا عددها وكثير منها واضح لا خفاء فيه . فيكفي أن يرى المرء طرفي النسبة حتى يحكم بينهما فمثلا يكفي أن نرى الهرمين لنشعر بالنسبة بينهما ونقرر أن هرم خوفو أكبر من الهرم الذي يليه ويكفي أن نرى الحطب في النار لنقرر أن النار تحرق . على أن بعض النسب خفي ليس من السهل أدراكه كالجاذبية مثلا فقد عاشت البشرية قرونا طويلة قبل نيوتن دون أن يخطر لواحد منها أن هناك تجاذبا بين الأجرام وظل السردينا حتى جاء نيوتن وقدر له أن يستخرجه ويشبته ، وكذلك بقيت النواميس الطبيعية والرياضية والنظريات الفلسفية محجوبة عن العقول والافهام حتى جاء من قدر له أن يشر عليها وتم ذلك بعملية التفكير .

والنقطة الهامة هي أن نتذكر طبيعة ما يحدث في عملية التفكير . فهذا الكون المائل أمامنا فيه أشياء تقع عليه الحواس وفيه نسب قائمة بينهما لا نستطيع رؤيتهما ولكنها في أثناء عملية التفكير تتكشف لنا فنشعره بها ونذكرها ونعبر عن هذه الرؤية بعبارة طويلة أو قصيرة ولكنها لا نستترسل في الثقة بصحة ما نرى فلا نسميه حقيقة بل ندعوه فرضا ثم نشرع في تحقيقه .

إذا الفلسفة والعلم يفترضان وجود عنصر خاص في السكون يتخذان منه هدفا لسعيهما وغاية وهذا العنصر هو عنصر النسب والروابط أو القوانين والنظم .

والوقائع أن الوجود يحمل طابع النظام . فهناك نظام دقيق يقوم بين الأجرام السماوية هو نظام الجاذبية وهناك نظام آخر كنظام تمدد الأجسام بنسب متفاوتة

وغير ذلك من النظم وبمضيا عام كنظام تمدد المعادن مثلا فكل حرارة تمدد كل معدن و بمضيا خاص

وهذه النظم الدقيقة التي يخضع لها سير الحوادث في الكون ولا يتخطاها هي سر الوجود الخفي . وهي في الواقع من الدلائل الواضحة على أن الكون يخضع لنظام دقيق محكم صاغة عقل كبير . فهو كون معقول ذو أوضاع معقولة يتسنى للعقل أن يفهما و يصل اليها .

الفصل الرابع

أصول التفكير النفسية

الشك والنشك

تمهيد :

قد يفتقل الناس عن الموروث من العقائد والتقاليد ، ولكنهم لا يفتقلون عنها دفعة واحدة ، فان العقائد الموروثة تقبض على العقول بيد من حديد ، فليس من السهل التفلت من قبضتها أو التحرر من سلطانها ، ولا يتم الخلاص من أسرها إلا تدريجياً و ببطء .

والخطوة الأولى في هذا السبيل هي خطوة الشك ، وهي مرحلة هامة جداً ، فهي بداية الحرية العقلية ، وقائمة عصور التجديد الفلسفي والعلمي .

ويظهر الشك في ظروف مختلفة : فمن ذلك أن الإنسانية قد تمتنق عقائد ساذجة أقرب إلى تصور الطفل منها إلى تفكير الرجل الناضج ، ومع ذلك لا يستريب أحد في صحتها ، ثم يجد ما يغير الحال ، فقد تظهر طبقة مثرية مفكرة ميالة إلى الإسفار ، فتري شعوباً أخرى ذات عقائد مخالفة ، وتلاحظ أنها مع ذلك مطمئنة إلى عقائدها غير متممة لها ، وهنا تبدأ موازنة خفية صامتة ، فيوازن المرء بين عقائده وبين هذه العقائد التي هبط عليها في موطنها ورأى من ثقة أصحابها بها مالا يقل عن ثقته هو بعقائده ، وفي هذه الفترة قد يداخله الشك في صحة عقائده ، أو صحة عقائده وعقائد غيره . فيفتقد طمأنينته وراحته النفسية

وإذ ذلك تفرق بالناس الطرق : فمن الناس من يبادر إلى قبول الجديد ، ومنهم من يتراجع إلى عقائده الموروثة وينب عنها بقلبه ولسانه ، وقد يظهر من بينهم من يرفض هذه وتلك ويخرج إلى الاستقلال ثم يأخذ في التفكير .

ولقد رأيت في أثناء مقامي في إنجلترا نماذج حية لبعض هذه الحالات النفسية ، إذ يجيء الطالب من مصر وهو مؤمن أشد الإيمان بصحة كثير من الأوضاع الاجتماعية المصرية ، فإذا رأى شعباً برمته يؤمن بأوضاع مخالفة ويمس طبعاً لها داخله العجب ، كأنما كان قد قدر استحالة أي وضع اجتماعي آخر فأدهشه أن يراه حقيقة واقعة ، وإذا ذلك يستنكره وينحى عليه بالأمم ، ثم تضطره ظروف حياته الجديدة أن يهادنه وإلا استحالت عليه الحياة ، وفي أثناء هذه المهادنة يبدأ الصراع بين عقيدته الاجتماعية القديمة ، وهذا الوضع الاجتماعي الجديد . وكثير ما رأيت مظاهر انحلال الثقة القديمة ووادئ الشك ، ثم التحول التدريجي نحو النظام الغربي . وقد يحدث هذا أحياناً بتطرف ، فيضلو المرء في حب الأوضاع الغربية وينقلب ساخراً من الأوضاع الشرقية التي كانت إلى عهد قريب موضع إيمانه وحيه .

ومهما يكن من شيء ففي مثل هذه الظروف ظهرت طلائع البحوث الفلسفية فالتاريخ يروي لنا أن سكان يونيه كانوا على اتصال وثيق بمصر ، وبالكلدانيين وسواهم من سكان الشرق المتوسط ، وأن هذا الاتصال الذي بدأ اقتصادياً تناول الناحية الثقافية أيضاً ، فقد اطلع اليونانيون على ديانات مصر ، وبابل ، وسواها وعرفوا الكثير من علوم تلك الشعوب وفنونها وصناعاتها ، ونقلوا الكثير من ذلك إلى بلادهم ، فكانت هي البذور الخصبية التي تولدت منها المدنية الاخرى قيمة

ويعنى تاريخ الفلسفة بجانب خاص من هذه الصلة ، فهو يحدثنا أن كثيراً من كبار الفلاسفة اليونانيين قد زاروا مصر وتعرفوا إلى كهنتها ، وحرصوا على معرفة دينها وتعاليمها ، وفي مقدمتهم « طاليس » نفسه ، واضع أساس الفلسفة الاغريقية .

وقد كانت الديانات والعلوم والفنون الشرقية التي شاهدها « طاليس » وسواه من فلاسفة الاغريق في مصر وغيرها من بلاد الشرق مخالفة لكثير من عقائد اليونان وعاداتهم وشرائعهم ، فكان من الطبيعي والمتوقع أن يساورهم الشك في صحة الكثير من عناصر التراث الثقافى القومى .

ولسنا نعنى بهذا أنه يكفى أن يرى الفرد ما يناقض عقائده ليندفع إلى الشك فيها ، فهذا عامل واحد من عدة عوامل لا بد من اجتماعها ، فلا بد أيضاً من قدر من الذكاء العالى . فقد دلت التجارب على أنه قد تلتقى الثقافات المتضاربة فى عقل الفرد دون أن تبدو عليه أعراض الشك ، بل دون أن يثر بالتناقض بينها ، فهى تقيم فى عقله جنباً إلى جنب ، متهادنة لا صراع بينها ولا تضارب ، وإنما يحدث هذا إذا كان حظ المرء من الذكاء نزرأ . أما الأذكاء : فلا تصطلمح فى عقولهم المتناقضات ، ولا تهادن الأضداد ، فما هو الا أن يروا التناقض حتى ينشب الصراع ويقع الشك .

وقد ظهر الشك مرة أخرى فى اليونان القديمة تحت ظروف مشابهة ، فان الحركة الفكرية التي بدأها « طاليس » أدت إلى ظهور نظريات كثيرة متناقضة فى تفسير الكون ، فهذا يقول : ان مادته الأولى هى الماء يتحول الى ارض ونار وهواء ، وذلك يحدث أنها الهواء يتخلخل فيكون نارا ويتكاثف فيصير ماء ثم

أرضاً ، وثالث يرى أن هذا الوجود وما فيه نشأ من العناصر الأربعة ، تتصل وتنفصل بفعل ماسماه الحب والبغض ، وسواه ينادى بأنها الذرات تلتقى وتفترق وهلم جرا .

هذا إلى أن ازدياد الصلة بين اليونانيين ومن جاورهم من شعوب الشرق قد أثار الشبهات حول النواميس الأدبية السائدة في البلاد ، فقد انكشف لهم أن الأخلاق والآداب تختلف من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب .

في هذا الجو المملوء بالمتناقضات ، والذي اختلف فيه وجه الحقيقة واستحال الوصول إلى رأى قاطع في تفسير الكون أو تحديد أصول الأخلاق ، امتولى الشك على الطبقة المثقفة في البلاد واستحوذ على النفوس اليأس من الوصول إلى الحقيقة في معضلات الوجود والأخلاق .

وهي ظاهرة نفسية سيئة الأثر ، ثم تطور الموقف إلى ما هو أسوأ ، فقد ظهرت نظرية فلسفية متطرفة ، نادى أنصارها بأنه لا سبيل إلى معرفة الحقيقة ، وقدعوا لأبيد دعواهم عدداً غير قليل من الأدلة ، فعم الشك وطفى سبل الفساد ، وقد عرف هذا العصر في تاريخ الفلسفة بعصر السوفسطائيين .

وهذا الموقف يختلف اختلافاً كبيراً عن الموقف الثقافي في عصر « طاليس » فإن الأمر إذ ذاك لم يزد عن مجرد الشك ، فلم تظهر بوادر اليأس من المعرفة ، ولم يحاول أحد أن يؤمن بالشك أو يبرره .

والفرق بين الموقفين من ناحية الأثر العلمى كبير ، فقد كان الشك في الموقف الأول باعثاً على التفكير والإنتاج .

أما نظرية اليأس من العلم والمبجز عن المعرفة فما كان ولن يكون لها إذا عمت إلا أثرها الطبيعى وهو : وقوفه حركة البحث والتنقيب العلمى .

ولكن كان من حسن الطالع : أن عصر الشك والعقم السابق الذكر لم يطل فلم يروع الناس ، وهم في تلك الحيرة العقلية إلا شخصية سقراط الخالدة ، وقد ظهرت وشرعت في محاربة الشك ودعاة اليأس العلمي ، ووضعت منهج البحث . وقد استطاع « سقراط » في أثناء حياته الحافلة أن يوقظ العقول من غفلتها وأن يدرب عدداً من تلاميذه على أساليب البحث والنظر ، فوضع بذلك أساس النهضة العلمية والفلسفية الكبرى في اليونان القديمة ، ولم يمض حتى كانت روح البحث العلمي ، وطريقته فيه قد تأصلت جذورها في نفوس عدد من أتباعه ومريديه ، وقد شاءت الأقدار أن يكون من بينهم « أفلاطون » الذي استخدم أسلوب أستاذه في تنمية بذور الفلسفة والعلم التي بثها سقراط في عقول تلاميذه . ثم نهض أرسطو تلميذ أفلاطون بهبء البحث والتنقيب حتى تم له وضع فلسفة حافلة قدر لها أن تسود عقول البشر في الشرق والغرب قروناً متطاولة .

ومهما يكن من شيء ، فإن شك السوفسطائيين على رغم ما اقترن به من يأس لم يلبث أن أفسح الطريق لحركة إنتاج وبحت علمي وفلسفي كما حدث في عصر الشك السابق .

ولما آذنت القرون المتوسطة بالزوال وبعثت الآداب الإغريقية والرومانية ، وأقبل الناس في جميع أرجاء أوروبا على تدارسها رأوا شيئاً مخالفاً في روحه والكنيز من تعاليمه لما ألفوه من العقائد الكنسية ، فالفلسفة والعلم اليوناني كما هو معروف يعتمدان على البرهان لا الوجدى ، والنظرية الكونية اليونانية وبخاصة المادية منها تخالف ما تنشره الكنيسة بين الناس من تعاليم ، ولسنا بحاجة إلى الإشارة مرة أخرى إلى ما تجرّه مثل هذه الحالة وراءها من شكوك وما يترتب على تلك الشكوك من نتائج ، ولكننا لا نرى بداً من الالتماع إلى بعض معالم هذا الحادث الثقافي الخطير الذي امتد أثره إلى العصر الحاضر .

كانت الفلسفة الارسطية في صورة من صورها هي السائدة في الجو الثقافي في القرون المتوسطة فكان علم مدارا الطبيعة المأثور عن ارسطو ومنطق ارسطو وطبيعيات ارسطو محل ثقة الجميع . ومن ثم اتجه الشك حينما ظهرت بوادره إلى تلك الفلسفة بفروعها المختلفة وانهاالت عليها الاتهامات والمهاجمات .

فمزا الفلسفة ركود البحث العلمي في القرون المتوسطة إلى منطق ارسطو وبدلوا جهداً جهيداً في التدليل على أن هذا المنطق لا يحتوي على شيء من مناهج البحث العلمي الطبيعي أو الرياضي . ونادوا بأن قياس ارسطو ليس في مقدوره أن يقوم بأكثر من تطبيق القواعد العلمية العامة التي تم اكتشافها فعلا على الحالات الخاصة التي تدخل في نطاقها . ثم شرعوا يبحثون عن مناهج البحث الصحيح . وقد قام بهذه الحركة المباركة بيكون وديكارت . أما بيكون فقد اتجه إلى البحث عن أصول منهج الاستقراء فوفق في ذلك إلى حد كبير . وأما ديكارت فكان اتجاهاه إلى الكشف عن أصول البحث الرياضي وقد حصل هو أيضا على قدر غير منزور من النجاح في تلك المحاولة . ثم تصدى غاليليو لطبيعيات ارسطو فأثبت بالتجارب الحسية فساد بعض النظريات التي ذهب إليها . وكذلك انصرف عدد من الباحثين العلميين إلى نقض النظريات الفلسفية وأثبت ان الشمس مركز الكون وان الأرض تدمر حولها .

وهكذا قارنت حركة الشك المذكورة حركة تجديد عام تناول الفلك والطبيعيات والمنطق والفلسفة واستمرت هذه الحركة في نشاطها إلى يومنا هذا . فوضعت أسس العلوم الحاضرة وكشفت عن نواويس الكون المختلفة .

ولم تنته بذلك عصور الشك ، فما زال الشك يطالع أوروبا من حين لآخر ، ويعد العصر الحالي عصر شك عام في القارة الأوروبية والأمريكية معا . وقد ظهرت

بوادر هذا الشك في الأفق السياسي حينما أثبتت التجارب أن الديمقراطية قد
عجزت عن تحقيق ما نيط بها من آمال في تخفيف آلام الطبقة العاملة وإصلاح
حال الشعوب التي تعيش تحت ظلالها .

وقد أدى هذا إلى حركة تجديد انتهت إلى وضع مذاهب سياسية جديدة
في روسيا وألمانيا وإيطاليا وإلى محاولة جديدة لإنقاذ الحياة الديمقراطية والنظام
الديموقراطي في إنجلترا وأمريكا وفرنسا . ومن أكبر زعماء هذه الحركة الإصلاحية
في إنجلترا ولز و برنارد شو وسكيري وجورد وجرالدهيرد والدس هكسلي وجوليان
هكسلي وسواهم .

والشك حقيقة واحدة نخضع في الشرق والغرب والماضي والحاضر لنواميس
واحدة . ومن ثم كان لنا أن نتوقع أن يكون تاريخ الشك في الشرق مشابها إلى
حد بعيد لتاريخه في الغرب .

والواقع أن العالم العربي أو الصفوة من أبنائه قد عانت حالة الشك في أكثر من
عصر من عصور التاريخ العربي ولا يحب هنا أن نستقصي تاريخ الشك عند
العرب ولكننا نسكن في أشياء من الحديث عن بعضها . فلن نحاول أن ندرس
ظواهر الشك التي بدت في الطبقة المثقفة من العرب قبيل عصر البعثة . ولكننا
لا نجد بدا من أن نعرض للأثر الفكري لالتقاء أصول الاسلام والثقافة اليونانية
في البيئة العربية في آخر العصر الأموي وصدر الدولة العباسية : فمن المعروف لسكل
من درس تاريخ الأمة العربية إنها عنيت بنقل كثير من الثقافات الأجنبية إلى
لغتها العربية .

وقد بدأت تفعل ذلك في آخر العصر الأموي ، ثم اندفعت في ذلك إلى أبعد
مدى في صدر الدولة العباسية . ولما دخلت الثقافات الأجنبية عامة والثقافة

اليونانية خاصة في الممالك العربية التقت ثقافتان مختلفتان : الثقافة الاسلامية القائمة على الايمان ، والثقافة اليونانية التي تعتمد على النظر العقلي . وإذا تذكرنا ما قدمنا عن مشيرات الشك استطعنا أن نتوقع النتيجة الطبيعية لالتقاء هاتين الثقافتين . والواقع أن بوادر الشك لم تلبث أن ظهرت في بغداد وما حولها كما ظهرت طلائع الشك في أوروبا في صدر عصر النهضة على أثر الاتجاه الى دراسة الآداب اليونانية والرومانية فيها .

وقد ظهرت في العالم العربي تيارات فكرية مختلفة كنتيجة لهذه الحالة الطارئة فظهرت بين الأدباء والعلماء طائفة من الشكاك المشككين . من في الرعيل الأول منهم بشار بن برد ومن متأخريهم ابن الراوندى وأبو العلاء المعري : وهو فيلسوف الشك في الاسلام .

وهناك من داهمة الشك فلم يقف عنده راضياً به مطمئناً إليه بل حاول أن يبني عقائده من جديد على أساس وطييد الأركان . والمثل الأعلى في هذا هو الغزالي ، وقد بنى عقائده على أساس أن التصوف هو الأساس السليم للمعرفة والعلم بما وراء الطبيعة .

ومعة جماعة من المسلمين استجابوا لجو الشك استجابة خاصة : فقد شعروا بأن الايمان بدأ يتزعزع في صدور بعض أفراد الطبقة المثقفة ، وأن سبب ذلك منطق الفلاسفة اليونانية الدقيق ، فاختطوا لأنفسهم خطة أخرى . كانت العقائد كالأحكام الشرعية تستمد من القرآن بوجه خاص . فرأوا أن يستخلصوها من هذه النصوص ويستعينوا بأسلوب النظر العقلي الذي جاءت به الفلاسفة اليونانية ، على إلباسها ثوباً نظرياً دقيقاً ، فكان علم التوحيد نتاج هذه الحركة

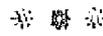
وهي حركة بناء وتجديد اعتمدت على الأسلوب الفلسفي الذي ظهر إذ ذاك في العالم العربي ، إذ كان هدفها قيادة الناس إلى العقائد على أساس النظر الفلسفي القويم .

ومن هنا بدأت تظهر مدارس علم الكلام ، كالمعتزلة والأشعرية وسواهم . على أن نفرأ من المسلمين لم يترددوا في أن يسيروا مع الفلسفة إلى مدى أبعد وهؤلاء هم فلاسفة المسلمين ، أمثال ابن سينا ، والفارابي وابن رشد ، فلاشك أن نظرياتهم في ظهور العالم ، وفي الخلود ، لا تتفق وصريح الدين كما أحس بذلك المسلمون في الشرق ، وكثير من فلاسفة أوروبا في القرون المتوسطة ، أمثال توما الإكويني .

وشبيه بهذا ما حدث في الممالك الإسلامية في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فقد كانت الممالك العربية قد تغلبت على أثر الفلسفة اليونانية وتناستها ، وعادت إلى ضرب من التدين الضيق ، فلم يرع العالم العربي إلا أوروبا تطالع عليه بفلسفة جديدة ، وعلوم طبيعية جديدة ، ونظرة إلى الحياة جديدة ، وأخذت تنشر كل ذلك في الممالك العربية ، وكانت مصر من أسبقها إلى تقبل المدنية الغربية والثقافة الأوروبية .

وهنا حدث مرة أخرى ما حدث قبل ذلك من شك قهضت طائفة من كبار المفكرين تحاول التوفيق بين القديم والجديد ، واستخلاص صورة جديدة للعقيدة والنظم الإسلامية وزعيم هذه الجماعة وباعث هذه النهضة هو المرحوم جمال الدين الأفغاني الذي خلف وراءه عدداً من التلاميذ الأفاضل لمواصلة العمل في هذا السبيل ولعل أعلامهم اسما ، وأبقاهم أنراً وذكرأ ، هو المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكن لم تلبث هذه الطبقة أن انقرضت ، ولم يظهر في البلاد من يسد مسدها

ويقوم بهتمتها . ولما كثر إيفاد البحوث إلى أوروبا في السنوات الأخيرة وبخاصة فرنسا ، أشرفت على دس من أبحاث البروتين في فرنسا روح الشك وعادوا بها ، وقد قبع بعضهم في عقر داره ، وظهر بعضهم لشكه ، ومارس مهمة التشكيك في كثير من الإصرار .



وقد أثبتت بحوث علم النفس الحديث أن الشك ليس حال شاذه ، وأن الفرد يوجد علمه من فترة شك طويلة أو قصيرة ، فحياة كل منا أدوار متعاقبة وكل دور منها يختلف عن سابقه في خصائصه النفسية : الفكرية الوجدانية والغروعية فهناك دور الطفولة الأولى ، ودور الطفولة الثانية ، وينتهي الأول ، ويبدأ الثاني في نحو السابعة من العمر ويلى ذلك دور البلوغ ، وتقع بدايته في نحو الثانية عشر وقد أثبتت بحوث علم النفس أن من خصائص دور الطفولة الطاعة والإيمان ففيه تتوطد العقائد الدينية والاجتماعية ، وتستقر السلطة الوالدية ، أما دور البلوغ فيبدأ بنزعة قوية إلى الاستقلال والتمرد على السلطة من ناحية ، ثم الشك في العقائد والتقليد من الناحية الأخرى ، فتلميذ المدرسة الثانوية يتعرض لانهميار الكثير من عقائده واستيلاء الشك على نفسه .

وسبب ذلك غير خفي ، فمرحلة البلوغ مليئة بالأحداث النفسية والجسمية ، ومن أهم تلك الأحداث : نمو الذكاء نمو سريعاً ، كما دلت على ذلك بحوث الذكاء ، فتماو قدره التلميذ على التفكير والنقد . وإذا تذكرنا أن التلميذ في هذا الدور يدرس العلوم الطبيعية ، والرياضة النظرية ، وأن هذا النوع من الدراسة إذا اتبعت فيه طريقة التفكير العلمي نبه ذكاء الناشئ ، وشحنه من غرب منطقته

استطعنا أن ندرك سبب ما يترتب في هذا المهد من شكوك قوية أو ضعيفة في الموروث من العقائد والنظم ، فالتقاء العقائد والمعلوم العلمية والرياضية في فترة يملأ فيها الذكاء ويتنبه المنطق وتزداد ثقة الفرد بنفسه ظروف تكفي لإثارة الشك في نفوس الشباب القليل التجارب ، الشديد الاعتماد بالنفس .

والآن وقد استطعنا أن نقوم بعرض تاريخي ونفسي موجز لعملية الشك ، يحسن بنا أن ننتفع بما كشف عنه هذا العرض من حقائق في دراسة طبيعة الشك والمكان الذي يجب أن يشغله في حياة الفرد والمجتمع .

ونبدأ من ذلك بدراسة حقيقة الشك وتحديد أسبابه ونتائجه .

ب - طبيعة الشك

ما أظننى الآن بحاجة إلى الإطناب فى شرح أسباب الشك العامة فقد تبين من العرض التاريخى والنفسى السابق بصورة واضحة لا لبس فيها أن التقاء الثقافات المتباينة والنظريات المتناقضة من العوامل الفعالة فى إثارة الشك .

كما اتضح أيضاً أن مرحلة البلوغ مرحلة يتداعى فيها الموروث و يثور الشك .

وهذا ناموس طبيعى يستغله جماعة المشككين . فهم يعمدون إلى عرض

النظريات المتناقضة للمقائد المتوارثة بشكل قوى جذاب واثقين بأن الشك سيكون النتيجة الطبيعية المحتومة

أما نتائج الشك فربما كانت أخرج من أسبابه إلى شىء من البيان والإسهاب

ومع ذلك فقد اتضح صورته العامة مما سبق فقد رأينا كيف دفع الشك

طاليس وسقراط وعلماء عصر النهضة وفلاسفته إلى التفكير والتجديد فالشك

لا تعرفه الطبيعة البشرية كشىء مستقل مقطوع الصلة بما سواه ، ولكنه يظهر

فى المادة كجزء من عملية نفسية مركبة تبدأ بالشك وتنتهى باكتشاف فكرة خاصة

وتفصل فيما بين الشك والاكتشاف عملية نفسية طويلة دقيقة ينقب فيها العقل

فى جميع الزوايا عن المعلومات السابقة ويقلبها ظهراً لبطن ثم تنهض من هذه

الأشياء صورة جديدة تمثل فرضاً علمياً أو حلاً لمعضلة من نوع ما وقد يلى ذلك

اختبار دقيق للفكرة الجديدة ينتهى بإثبات صحتها أو ظهور فسادها .

فالشك إذاً ليس حقيقة نفسية مستقلة ، وإنما هو جزء من عملية التفكير

ودور من أدوارها ومهمته واضحة : فهو الذى يدفعنا إلى التفكير والبحث .

وينضج هذا إذا تذكرنا أن الشك حالة قلق وأن الرجل إذا سلب الإيمان بما يمتد ودخله الشك فيه زایلته الطمأنينة والراحة النفسية ، فاندفع إلى البحث لتعاوده الطمأنينة والراحة النفسية المفقودة .

تلك هي مهمة الشك في الحياة العقلية وهي مهمة خطيرة . فالعصور التي لا يظهر فيها الشك يسود الركود حياتها العقلية ويستولى الجود على نظمها السياسية والاقتصادية ، ولا يظهر التجديد في دوائرها العلمية ، فاذا ظهر الشك تبدل الحال فظهرت البحوث العلمية والفلسفية والسياسية والاجتماعية . وكذلك تكون حياة الأفراد فالثقة إذا استولت على عقل الفرد عاش على القديم راضيا به مطمئنا إليه حتى إذا أزعجه الشك تغير حاله فقد ينهض للبحث والتنقيب بعزيمة جديدة وروح يتملكها حب الحرية والاستقلال .

وبالإجمال ففترات الشك جزء طبيعي من حياة الفرد وحياة المجتمع وينلوها إعادة عصور التجديد الفاسفي والعلمي .

وقد كان من الأغلط القديمة قبول الفرض الفلسفي حين ظهوره والثقة منه ، والاطمئنان إليه والوقوف بمهملية التفكير عندهذا الحد وربما كان من أسباب ذلك أن الفكر بعد الجهد المضني الذي بذله لا يكاد يظفر بفرض جديد حتى يتنفس الصعداء ويعنى نفسه من عناء التفكير . ولكن الحال تغيرت في عصر النهضة . فقد نادى طليعة المحدثين من الفلاسفة والعلماء بضرورة الاستيثاق من صحة الفروض ونصحت بمقابلتها بالشك والضعف عليها بالثقة ثم التجرد لاختبار صحتها بوسائل الاختبار العلمي المختلفة فان أسفر الامتحان عن صحتها قبلت وإلا ردت غير مأسوف عليها .

من وظائف الشك إذا أن يكون باعثا على تحقيق الفروض . وهي وظيفة هامة

فالفكرة الجديدة لا تنقلب جزء من العلم أو الفلسفة إلا إذا قام الدليل التجريبي أو النظري على صحتها ولم يبق ثمة مفر من قبولها .

لشك في عملية التفكير إذا وظيفتان . فهو باعث على التفكير و باعث على التحقيق وكلاهما ضروري للعلم .

فالشك إذا عنصر فكري هام فهو في الدافع إلى البحث والتفكير والمرحلة الأولى في حياة المذاهب الفلسفية وكثير من النظريات العلمية ، وهو أيضا مصدر التثبيت والاستيثاق العلمي . فهو الذي يحجز الفيلسوف والعالم الحديث عن الخطأ الذي وقع فيه قدامى الفلاسفة والعلماء ، وهو . المبادرة إلى اعتناق الفكرة الجديدة التي يقودهم إليها التفكير دون توقف أو تريث ودون استيثاق وتمحيص . وقد أصبح جزءا من الأسلوب العلمي الحديث الشك في الفروض عند ظهورها بدل الركون إليها والإيمان بها .

فوظيفة الشك الطبيعية إذن أن يكون جزءا من عملية التفكير لا شيئا مستقلا وأن يقوم فيها بمهمة الباعث والناقد معا ولعل أروع مثال لذلك هو حياة ديكارت :

شك ديكارت شكنا عاما جارفا ، فلم يرتض أن يتمرغ في حماة الشك مستطيبا له متلذذاً به بل نزعته به همته في الحال الى طلب المعرفة والتماس العلم ، فشرع يبني عقائده بأسلوب النظر وبدأ بتحديد أسلوبه الصحيح فانتهى به تفكيره الى أن المثل الأعلى له هو الأسلوب الرياضي الذي يبدأ بالديهي ويستخلص منه نتائجه ، فأتخذ هذا الأسلوب أداة لبحوث الفلسفة .

والآن وقد عرفنا وظيفة الشك وأنه جزء من عملية التفكير يقوم فيها بدور الدافع والناقد فمن واجبنا أن نستخدمه في المدرسة والحياة لهذه الغاية فعلى المدرسة

الثانوية أن تعاون التلاميذ على استرجاع عقائدهم من جديد ، ولكن لا من طريق الإيجاء الذي كان يستخدم في دور الطفولة الثانية ، فهذا أسلوب محقق الفشل في هذا الدور ، بل من طريق آخر مختلف كل الاختلاف وهو : طريق التفكير الذاتي . وينبغي ألا ننسى أن الشك قد مهد الطريق وأعد عقل الناشئ لهذه العملية .

والطريق السوي هو أن نهيب للتلميذ المواد الضرورية المختلفة ونحمله على التفكير فيها ثم نرعى هذه العملية حتى رعايتها ليصل التلميذ بتفكيره الخاص الى التخلص من شكوكه وبناء عقائده على أساس وطيد من النظر الصادق والبرهان القاطع .

ومهما يكن من شيء فهذا الشك الطبيعي الذي اكتشفه علم النفس الحديث لا يجوز أن يهمل بل يجب انتظاره والإنتفاع به عند ظهوره في إقامة إيمان جديد قوى الدعام وطيد الأركان . وقد دلت التجارب على أن نتيجة الإهمال هي شك مزمن . وهي العاهة النفسية التي يُعطل فيها الشك عن أداء مهمته وينقلب غاية لا وسيلة .

وينبغي أن نتذكر أن حركة التشكيك في مصر والشام والعراق قد أثرت في نفس الشباب العربي تأثيراً أعمق مما نظن بكثير فقادته في طرق الفوضى الفكرية والحيرة العقلية ثم تركته هائماً في ببدأ الشكوك دون أن يجد من المدرسة أوسواها عوناً له على النجاة من شرورها :

أن دور الشباب هو المرحلة التي يتكون فيها عقل الرجل . تتكون فيها آراؤه وعواطفه وعاداته ، فهو مرحلة خطيرة جداً : هو نقطة التحول في حياة الفرد . فلا بد لنا من أن نستعرض العوامل الاجتماعية والثقافية المختلفة التي

بتعرض لها فكر الشاب ووجدانه في ذلك الحين . ولا بد لنا من السيطرة على الموقف لا لنمنع الحرية الفكرية ولكن لنقاوم أسباب الاستهتار . ونقود عقل الطفل من بعيد في طريق الأمن والسلامة الفكرية .

وليس أقل من ذلك خطورة أن نعود شبابنا الشك فيما يمن لهم في ساعة البحث من حلول وأفكار وأن ندرّبهم على حب الاستيثاق . فمن طباع الشباب عامة والشرقيين منهم خاصة التسرع في إمضاء الحكم ومجاوزة الحد المعقول في التعميم ، فعلمنا أن نشعرهم بالحاجة المنطقية القصوى إلى تحقيق الكنيز مما يخطر لهم من الآراء بتحقيقا علميا وأن نعطيهم فكره عن طرق التحقيق العلمى وتدرّبهم على ذلك تدريبا كافيا .

وإذا كان من واجبنا أن نهتم بالشباب في دور شكه المحتوم فمن واجب المجتمع أيضا أن يهتم بالجمهور إذا أصبح الشك عرضا عاما وضررا متفشيا . ويقع هذا الواجب بوجه خاص على طبقة العلماء القادرين على التجديد .

ومهما يكن من شيء فالأفق الثقافى فى العالم الإسلامى خال من البناء المجددين للعقائد الدينية والسياسية والاجتماعية على شدة تفشى الشك وانتشار الخير العقائدية وتشتد الحاجة اليوم إلى نوعين من المجددين : نوع المجددين الدينيين ، ومهمة هؤلاء هى نفس المهمة التى قام بها واضعوا علم الكلام فى عهد الدولة العباسية ، وإذا كان هؤلاء قد استمانوا بالفلسفة اليونانية فعلى المجددين فى العصر الحالى أن يستعينوا بالفلسفة الحديثة ، ومامن شك فى أن التجديد على هذا النحو مهمة شاقة لا تيسر إلا لمن درس الثقافتين الإسلامية والغربية وشرب من حياضها وعل . وهناك مكان آخر لمجددين من الفلاسفة يعاونون الشباب على الخروج من حالة الشك أو عدم الاكتراث التى يعمش فيها ، وعلى رؤية العقائد الصحيحة والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القوية بالبرهان النظرى السليم .

التشكيك

وبالشك يتصل التشكيك ، والتشكيك عمل ثقافي اجتماعي لا بد لنا في بحثنا هذا من أن نتصدى له ، محاولين الكشف عن طبيعته وصلته بالشك ومكانه في حياة المجتمع .

وأول ما ينبغي أن نعرض له في هذه المناسبة هو صلته بالشك ، ويتصل التشكيك بالشك من ناحيتين ، فهو من ناحية سبب من أسباب الشك ، ومن الناحية الأخرى وليد الشك ونتاجه

أما هدفه ومرماه : فبذر بذور الشك فيما استقر في النفوس من العقائد والآراء ، وذلك أن كثيراً ممن تزعم عقائدهم ، وينهار إيمانهم يجدون أنفسهم مدفوعين إلى نشر الشك ، ومواصلة الجهود في ذلك حتى ينتشر الشك ويتداعى الإيمان .

وطائفة المشككين معروفة في التاريخ الفلسفة والعلم ، وتظهر عادة في المصور التي تسبق النهضة الفلسفية والعامة ، فتستغل بوادر الشك والحيرة التي تنشأ حينما تتلاقى الثقافات المختلفة ، أو تتناقض النظريات الفلسفية والعملية ، والرعييل الأول منهم هم السوفسطائيون ، وهم فريق من الناس ، فريد في نزاعه ومراميه ، فانهم لم يكتفوا بالشك والتشكيك ، كلون من ألوان الحياة الفكرية ، بل وضعوا فلسفة خاصة لتبريره ، فاستعانوا بما أوتوا من ذكاء على إثبات استحالة الوصول إلى العلم ، وأن الشك ضربة لازب وأمر لا معدى عنه ولا مفر منه .

ومهما يكن من شيء : فهذا وضع مخالف للوضع الطبيعي ، فالطبيعي : أن ينقلب الشك باعثاً على البحث ومحرضاً على التفكير ، فإذا أصبح حالة لازمة كان

ذلك شذوذاً في الطبيعة وخروجاً عن الوضع السليم . أما تبريره ووضع فلسفة خاصة له فافغراق في الشذوذ .

ومع ذلك : فيجب ألا نفعل عن قيمة التشكيك ، كعامل ثقافي كبير . فالتشكيك : هو الأداة التي لا غنى عنها لبعث النهضة الفكرية والتطورات الاجتماعية ، وقد قام المشككون للبشرية في هذا الصدد . دامت جليلة . وليس من الخفى أنه إذا تراكت الخرافات وفسدت الأوضاع السياسية والاجتماعية ، كان من العبث أن يحاول المفكر أن يحمل الناس على قبول الجديد من الآراء والنظم قبل أن يقوم التشكيك بعملية الهدم وإزالة الأنقاض .



فإن الخطوة الأولى في التخلص من العقائد الفاسدة والنظم الظالمة هي أن نلقى عليها ضوءاً وهاجاً يظهر عيوبها ، وآثامها النفسية والجسمية ، فإن هذا العمل يثير الشك في صحتها ، ويوقظ العقول المطمئنة إليها من غفوتها ، وهذه الخطوة هي نصف الطريق إلى الإصلاح ، ولعلها أشق من كل ماعداها ، فالإيمان القديم المتوارث حصين منيع الجوانب ، لا يهدمه إلا الهجمات المنطقية المتوالية ، ولا سبيل إلى التجديد إلا بعد القضاء عليه وإزالة أنقاضه .

نستطيع إذن أن نقول : إن التشكيك قوة اجتماعية ، لا غنى عنها لتطور المجتمع ، وأن توجيهه إلى أسس النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفاسدة هو الخطوة الأولى للقضاء عليها .

وتتجلى روعته كقوة هدامة في انهيار النظام الإقطاعي ، ذلك البناء الضخم

الشامخ ، الذي أيدته الكنيسة وقدسته القرون المتعاقبة تحت حملات فلاسفة الثورة الفرنسية ، وعهدنا قريب بما أصاب الديموقراطية التي شادتها الثورة الفرنسية ، وغنى الناس أكثر من قرن كامل مديحها والثناء عليها ، وكيف انبرى لها كبار النقدة ، فزلزلوا إيمان الشعوب بها ، فلم تلبث أن انهارت في إيطاليا وألمانيا ، وحل محلها النظام الفاشي والنازي .

النقد والتشكيك إذا قوة لا يستهان بها ، وهي إذا أحسن استخدامها كانت خير أداة لتطهير المجتمع من النظم الفاسدة والأوضاع السقيمة ، وأعانى الشعوب على السير في طريق التطور الاجتماعى والسياسى والاقتصادى . ومن ثم كان من المرغوب فيها أن تنهض فى الشعب طائفة من المفكرين الذين يتصدون لنقد النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولا يجوز لنا أن نعبر فى وجوههم أو نقتنكر لهم .

وعندنا من النظم الهزيلة والسقيمة التى أفست علينا الحياة عدد كبير جداً ، فاليها يجب أن تتجه جهود النقدة ، والواقع أن مناط الأمل فى التطور الاجتماعى أمران :

أولاً : مرونة عقول الشباب وقدرتهم على أن يروا موضع النقص فى التراث القديم ، ومن ثم كان من حسن السياسة الاتجاه إلى الشباب وتأليف كتب مناسبة لعقولهم يكون هدفها نقد القديم ورؤية الجديد ، ولكن القديم الفاسد فقط .

ثانياً : نفر من المشككين ذوى الشجاعة والإقدام الذين يأخذون على عاتقهم مهمة إنارة الأذهان وتحطيم الأوثان ، وذلك بالكتابة والتأليف والخطابة لنقل

الناس من أفق القديم إلى أفق المستقبل والتمهيد للتطور الاجتماعي .

* * *

بيد أن هؤلاء الشاكين المشككين يمشون عقلية خاصة ، ففي أكثرهم ضرب من الاسراف والفساد ، بل نوع من الجوح . ومن ثم ينقلب النقد في أيديهم ضرباً من الميل إلى الهدم والتعظيم ، وهم في سورة نشوتهم لا يتورعون عن مهاجمة أمن ما في تراث الشعوب وأعزه عليهم ، وكأنما يعجبهم أن يتألم الشعب ، وأن يمتد الألم إلى جميع الطبقات ، وأن يبلغ الألم أقصى الدرجات ، فيتوخون بحملاتهم المتجنية الغالية ما يكون موضع حب الجمهور وتقديره العالي .

ومثل هذا الصنيع إثم اجتماعي كبير ، ففي بعض الناس ميل قوى إلى الشك وارتياح إليه ، والشبان كما أسلفنا يرون في أيام الشباب الأولى بدور شك عام فهؤلاء وأولئك تتغذى نزعتهم إلى الشك من تلك الحركة ، فيعم الشك ويقبل الإيمان ، والشك شلل ، والإيمان حياة وعمل ، والمجتمع الذي يعيش في حالة شك يعيش عيشة عقيمة شاذة .

ومن شاء أن ينظر ما يفعله الشك بالأمم والشعوب فليتنظر إلى فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية ، فقد اتجهت جهود عدد كبير من مفكريها وأدبائها إلى إثبات التشكيك ، فأتخذوا من المسرحيات ومن الرسائل والفصول أداة لنقض كثير من النظم والآراء التي كانت يعيش عليها المجتمع إلى ذلك الحين ، وتأثر الرجال والشباب بذلك ، فداعت عقائدهم القديمة ، والتبست عليهم معالم الأمور

والصلة بين الشك والسلوك وثيقة ، ومثلها الخالد عمر الحيام الذي حاول أن يفرق شكوكه في خمر الدنان ، وهكذا فعل الشباب والشيوخ في فرنسا فقد دفعهم الشك إلى حياة كلها عبث ومجون .

للتشكيك إذاً جانبان : فهو مصدر للخير ، ومصدر للشر ، والمجتمع السعيد هو الذي يقيض الله له عدداً من الشاكين الخالصين الذين يتجه شكهم وتشكيكهم إلى العقائد الفاسدة ، والأوضاع الاجتماعية الضارة ، والذين لا يتحدون من التشكيك صناعة أو هواً ، فياجون النافع والضار ، والخير والشر .
وأسمد منه المجتمع الذي يظهر فيه الشكك وبنات العقائد مما فتكون طائفة لهدم العقائد السقيمة ، وتحرير المجتمع من سلطانها الغاشم ، وطائفة أخرى لرفع الأتقاض وتشديد الجديد .

وقد كانت في إنجلترا حركة تشكيك جعلت هدفها السخرية بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كان الشعب الإنجليزي في عهد الملكة فيكتوريا يؤمن بها بل يقدها تقديساً . وقد عاشت هذه الحركة إلى الفترة التي امتدت بين الحربين ومن أكبر زعمائها الكاتب الإنجليزي المعروف برناردشو والفيلسوف العالمي الكبير برتراند رسل .

ولكن كان من حسن حظ إنجلترا أن ظهر فيها أيضاً عدد من البنات الذين جعلوا همهم رفع الأتقاض وتشديد الجديد في الأفق الديني والسياسي والاجتماعي ومن أشهرهم الكاتب العالمي الكبير ولز : ومن تتبع كتاباته رأى كيف دب الشك إلى عقائده المختلفة فانهارت تباعاً ، وكيف نصب جاهداً لبناء عقائد جديدة تحل محل القديمة . والواقع أن تاريخه وما طرأ عليه من تطور يبدو

من ثنايا كتاباته واضحا جليا . وهو يمثل إلى حد كبير ما يجري في عقل كل متعلم يعيش في هذا العصر .

ومن البناة المجددين أستاذنا جون مكري أستاذ الفلسفة في جامعة لندن سابقا فإلى جهود الجبارة يرجع الفضل في بناء كثير من قواعد عقائد الجيل المعاصر في إنجلترا .

مهمة التشكيك إذاً أن ينشر الشك ولكن ليمهد بذلك للتفكير والبناء المجددين .

الفصل الخامس

موضوعات الفلسفة

مقدمة تاريخية :

حب المعرفة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وقد ذهب قدامى الفلاسفة وأقرهم عليه علماء النفس المعاصرون إلى وجود غريزة مشتركة بين أفراد النوع ومتوارثة بين أجياله ، تسمى غريزة الاستطلاع ، وقد باشرت هذه الغريزة عملها منذ اللحظة الأولى ، فعرف الإنسان بسببها الكثير من طبائع الأشياء ، ولكن الذي نحاول أن نتكلم عنه الساعة ليس التفكير التلقائي الذي تقوم به تلك الغريزة ، حتى في أحط الشئون وأتفه الأمور ، ولكنه نوع خاص من التفكير تدفع إليه تلك النزعة الفطرية العامة ، وهو التفكير الدهوب الموجه إلى طلب الحقائق الكونية الخالدة المستكنة في ضمير الوجود ، والذي يهمننا منه الساعة هو أن نعرف إلى أي الموضوعات اتجه في البداية ، وكيف غير مجرى اتجاهه فمدل من موضوع إلى موضوع .

وأول ما يجب أن نذكر أنفسنا به هو أن الفلسفة قد بدأت حينما ظهر طاليس ومن جاء على أثره من الفلاسفة الذين سجل التاريخ أسماءهم ، وقد كان من أول الموضوعات التي اتجهت إليها أنظارهم وعالجتها عقولهم المعضلة الكونية ، وليس في هذا ما يثير دهشة ، فإن الإنسان في أيامه الأولى لم يثره شيء بمقدار ما أثاره هذا الكون الفسيح الغاص بأنواع النبات والحيوان والأهبار والجبال والنجوم السيارة ، والذي يحمل طابع الصنعة لصانع غير ظاهر .

كانت المعضلة الأولى إذاً هي المسألة الكونية ، ولكن الفلسفة حتى في أيامها الأولى لم تقصر بحثها عليها ، فقد اتجهت في لفتات قصيرة إلى الأخلاق وإلى النفس البشرية ولسكنها كانت مجرد لفتات لا تستحق اسم البحث الفلسفي ، فبقيت تلك البحوث مهمة أو كالمهمة حتى جاء عصر السوفسطائيين ، وظهر سقراط فتغير مجرى البحث .

ظهر سقراط وقد تكاثرت في الجسوالعلمى النظريات المختلفة عن طبيعة الكون ، فهذا يذهب إلى أنه ماء يتشكل ، وذلك يذهب إلى أنه هواء يتكاثف ويتخلل ، وثالث يذهب إلى أنه نار تتحول إلى العناصر الأربعة ، ورابع يذهب إلى أن كل شيء يتكون من العناصر الأربعة مجتمعة بنسب مختلفة ، وخامس يذهب إلى أن الكون ذرات متحركة متشابهة في حقيقتها مختلفة في حجمها وأشكالها ، تتلاقى وتتشابك فيحدث الكون وتفترق فيحدث الفساد ، ويوغل آخر في الاغراب ، فيذهب أن التعدد والحركة التي شغلت عقول الفلاسفة فذهبوا في تفسيرها كل منذهب ، وهم باطل لا حقيقة له ، وأن الوجود وحده ساكنة لا حركة فيها .

كانت هذه النظريات تتناثر في الجو يناقض بعضها بعضاً ، وتنكر الواحدة منها ما تثبته الأخرى ، ولا سبيل إلى الفصل في الموقف ببرهان قاطع ، ورأى حاسم ، وكان من جراء ذلك أن بدأ عصر شك ، وظهرت طائفة من الفلاسفة تدعو إلى الشك وتحاول أن تقيم الدليل على أن الوصول إلى اليقين مستحيل . في هذا العصر ، وفي هذه البيئة الفكرية المضطربة نشأ سقراط فتملكه اشك في صحة هذه النظريات المتناقضة بل استولى عليه القنوط من الوصول إلى اعلم صحيح يركن إليه في تفسير الوجود ، فعدل عن هذا الموضوع ، واتجه بجهوده

فهو الأخلاق ، إذ رأى الحاجة إلى دراستها ماسة ، وتوقع أن يكون العلم الصحيح في ميدانها ممكناً ، وكانت هذه بداية اتجاه الفلسفة إلى دراسة الأخلاق بصورة قاطمة ، ومنذ ذلك الحين أصبح علم الأخلاق جزءاً هاماً من الدراسات الفلسفية تناولها أفلاطون وأرسطو فيما تناولوا من دراسات فلسفية مختلفة فقد عرض أفلاطون في دراسته للأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة والتربية ، وتناول أرسطو كل هذا وسواه من منطقتي دراسات نفسية وطبيعية مختلفة ، وهكذا اتسع نطاق الموضوعات الفلسفية في ذلك الحين ، فشملت الطبيعة وما وراء الطبيعة ، والمنطق والأخلاق والسياسة وغيرها .

ولا نحب أن نتمتع بالفلسفة في جميع أدوارها ، ولذا لا بد أن يكون سيرنا في تقصي موضوعاتها ضرباً من الوثب ليتمنى لنا أن نتخطى العصور اليونانية التي لا خطر لها ، وننتقل مباشرة إلى القرون المتوسطة .

ولا مجال هنا للكلام عن سعة موضوع الفلسفة وضيقة ، فالقرون المتوسطة تمثل دوراً خاصاً في تاريخ العقل البشري أحص خصائصه ركود ربح الفلسفة كبحث حر طليق ، والواقع أن الفكر البشري الذي ظل حراً طليقاً في عهد لوثنيه اليونانية والرومانية يتولى قيادته الطبقة المثقفة على الأقل قد تخلى في هذا العهد عن القيادة لعامل جديد ظهر فجأة فدان له الناس في شرق أوروبا وغربها وساموا له الزمام طائعين مخنارين ، وهذا العامل هو الدين المسيحي الذي انتشر في ذلك الحين في طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها .

ولكن الفلسفة حتى في ذلك الحين لم تفقد اهتمام الناس بها إلا فترة قصيرة فان الكنيسة لم تلبث أن عرفت لها فائدتها . فالفلسفة الوجودية والفلسفة الأخلاقية تستطيع أن تؤدي خدمة دينية كبرى . ويتضح هذا إذا تذكرنا أن

الفلسفة تعمل في نفس المجال الذي تعمل فيها الديانات وتفصل في المشاكل التي تفصل فيها فمسألة نظام الوجود العام مثلاً من المسائل التي سبقت إليها الديانات حتى البداى منها وقدمتها للناس فيها حلولاً ، وكذلك الحال بالنسبة للقوانين والعادات والأخلاق فهي من الموضوعات التي تعنى بها الديانات كل العناية فتقر بعضاً وتتهى عن بعض .

وقد زأت الكنيسة أن مذهب كبار الفلاسفة في هذه الموضوعات يتفق وأصول الذين فمذهب أفلاطون وأرسطو قريب الشبه بالدين المسيحى وبدا لزعمائها أن من الخير الانتفاع بما لهما من طابع فلسفى لتدعيم العقائد الدينية والأخلاق المسيحية ومن ثم تبني القديس أغسطين فلسفة أفلاطون واستمان القديس توما بفلسفة أرسطو التي صارت منذ ذلك الحين فلسفة الكنيسة الكاثوليكية ، وهكذا أصبحت الفلسفة في هذا الحين تؤدي وظيفة دينية هامة .
قاذا انتقلنا إلى عصر النهضة وما يليه . كان أول ما يجب أن نسجله هو ما طرأ على الحياة الفكرية من تغير وما جد فيها من جديد في أساليب البحث وموضوعاته .

والواقع أنه ما كادت مؤلفات أرسطو وأفلاطون وفلاسفة روما تبعث من مرقدها ويأخذ الناس في دراستها حتى دب فيهم ديب الحرية الفكرية الذي كان يشتعل في صدور فلاسفة اليونان والرومان كأنما كانت تلك الروح هاجمة مغفية في صفحات تلك الكتب . فما كادت تمس نفوس الأدباء والمفكرين في هذا العصر حتى تملكهم من حب البحث والحرية الفكرية ما كان يملك أولئك الفلاسفة القدماء أنفسهم .

كانت القرون الوسطى عصر تدين فكان الناس مؤمنين بدينهم صادق

الإيمان وكان أهم ما يشغلهم خلاص أرواحهم ومن ثم كان لا بد لهم من أن يخضعوا لتوجيه الكنيسة فكان اللاهوت هو العلم الذي يحل في المكان الأول من اهتمام الناس جميعاً ، ولم يكن الناس يهتمون كثيراً بدراسة الطبيعة أو تعرف نواحيها ولم يكونوا يقبلون بقلوبهم على الطبيعة فينعموا بما فيها من طعام وشراب وزينة بل كانوا يرون أن واجبهم أن يزهّدوا في الطبيعة وما حوت وأن يتجهوا بمساعيهم لا إلى الإنتاج وكثرة الأموال ، ولكن إلى الأعمال التي تضمن لهم السعادة في الدار الآخرة ، وبالإجمال فقد كان ما وراء الطبيعة هو موضوع الدراسة ومطمح الأنظار في تلك القرون ولكن هذا الاتجاه أخذ يتغير منذ عهد النهضة . فقد أدى هذا الحادث الثقافي الهام إلى نتائج بعيدة المدى . فقد شرع الناس يدرسون فلسفة أفلاطون وأرسطو في أصولها ، وأخذوا يقرءون المسرحيات والشعر اليوناني والروماني فاذا هم في دنيا جديدة ودراسات طريفة تدور حول الطبيعة والنفس الإنسانية . وما كادوا يدخلون هذا العالم الجديد حتى داخلهم الإعجاب به والارتياح إليه . وهكذا خرجوا مرة واحدة من الدراسات اللاهوتية إلى دراسة الإنسان ، ودراسة ما في الطبيعة من أفلاك ونجوم وحيوان ونبات ومنحوها من عنايتهم ما كانت تنفرد به الدراسات اللاهوتية ، ولم يقتصر الأمر على الدراسة بل أخذت نظرهم إلى الحياة تتغير أيضاً فالحياة الآخرة التي كانت مطمح الآمال ومعتقد الأبصار بدأ الاهتمام بها يقل أما الحياة الدنيا التي كانت بتأثير الدين موضوع احتقار وازدراء فقد بدأ جمالها يظهر لهم وحبها يتملك قلوبهم وهكذا بدأت الأفكار والقلوب تتحول عما وراء الطبيعة إلى الطبيعة نفسها وهذا وحده انقلاب ثقافي وروحي كبير .

ولكن الآداب اليونانية ذهبت في تأثيرها إلى أبعد من هذا . فانها وإن

كانت تقدم للناس أفكاراً وآراء جديدة غير مهودة في ذلك المهد فهي تقدم أيضاً مع تلك المادة شيئاً آخر أهم منها وأقدر على أحداث الثورات والانقلابات الفكرية الخطيرة فكتب الآداب اليونانية تحمل طابع تلك العقول الجبارة التي وضعتها . وهي عقول تمتاز بالقدرة الفكرية الممتازة من ناحية وتتسم من الناحية الأخرى بسمة الحرية والاعتداد بالنفس والاستقلال بالرأى . فقد كان هؤلاء الفلاسفة طليعة رواد الكون والرعىل الأول من مستكشفي الطبيعة وماوراء الطبيعة وكانوا في فسحة من دنياهم فلم يكن في المجتمع قوة إجتماعية كبرى مفرطة في السطوة والسلطان تفرض على الناس آراء خاصة وتندبرهم بضروب العقاب إن حدثتهم أنفسهم بالانتقاض عليها .

ومهما يكن من شيء فإن طائفة المثقفين منذ عصر النهضة قد أصبحت عرضة لعدوى الحرية والاستقلال الفكرى التي تنبعث من ثنايا كتب الآداب القديمة التي كانوا يتدارسونها في ذلك الحين . ولعل أهم مكسب ثقافى جنته أوروبا من هذه الدراسات هو ظهور هذه الروح نفسها في عدد كبير من طليعة علماءها وفلاسفتها الذين وضعوا أسس العلوم والفنون والفلسفة الحاضرة . وقد ظهرت هذه الروح في بدايتها بصورة شك لا في الروحيات وحدها ولكن في الفلسفة اليونانية القديمة أيضاً فتسربت الشكوك إلى صحتها بدلا من الإعجاب بها والاستنامة إليها كما حدث لبعض الشعوب . وأصبح أرسطو بصورة خاصة هدفاً لحملات عنيفة تناولت منطقته وبحوثه الطبيعية وآراءه في علم الجمال وغيره ثم تلا ذلك أوراؤه عصر تجديد وتمتاز هذه الحركة الفكرية الجديدة بميزتين هامتين .

أما الميزة الأولى فهي أن البحوث العلمية تحررت نهائياً من اتجاهها القديم

فبدلاً من أن تنتج جهود الباحثين في ذلك الحين إلى ما وراء الطبيعة وحده كما كان الحال قديماً أخذت سمعتها إلى الطبيعة نفسها راضية بذلك مطمئنة إليه غير مكترثة بما يصبه الدين ورجاله على الطبيعه من إحتقار واستصغار . فتفرق العلماء طوائف اختلفت كل طائفة منها بمنطقه من مناطق الطبيعه كالفلك والميكانيكا والرياضه ونحو ذلك . وهكذا تراجع الروح الميتافيزيقية القديمه التي كانت لا تهتم بالكون إلا كوحده جامعه وتحاول فهمه كذلك وظهرت روح منطقيه جديده تستسيغ تقسيم الكون مناطق وتسمح لكل طائفة من طوائف الباحثين بالإكتفاء بمنطقه واحده من تلك المناطق كالأفلاك أو الأشكال الهندسيه أو النبات أو الحيوان . وهذه هي الروح العلميه الجديده التي قامت على أنقاض الروح السابقه وظلت قائمه إلى اليوم .

أما الميزة الثانية : فتتصل بأسلوب البحث ، وهي حادث ثقافي كبير ، بل لعله أكبر حادث في تاريخ الثقافة الإنسانية كلها ، فقد تغير أسلوب البحث ، وكان طبيعياً أن يتغير بعد أن تغير موضوع الدراسات ، وحلت الطبيعة مكان ما وراء الطبيعة ، وأساس هذا الانقلاب : أن الموضوع الجديد تناله الحواس وتدركه الأبصار ، أو الأسماع ، أو الملاحظة الباطنية . أما الموضوع القديم فلا تستطيع الحواس أو الملاحظة الباطنية أن تصل إليه ، وهذا فرق كبير ، له أثر منطقي بعيد .

كان البحث قديماً يعتمد على أسلوب الاستنباط ويمثله في صورته الدقيقة ، الأخاذة علم الهندسة النظرية ، وقد أشرنا فيما مضى إلى طبيعته ، ولا نحب أن نعود إلى ذلك بأكثر من كلمات معدودة يدعو إليها الموقف . فأساس هذا

الأسلوب افتراض حل من الحلول لمعضلة من المعضلات التي تواجهنا بها الحياة ثم إثباته بإظهار الصلة بينه وبين حقيقة ظاهرة كبدئية من البديهيات ، وقد كان هذا أسلوب البحث في اليونان ، وبخاصة في الفلسفة ، وليس في هذا الحل عادة موضع للمشاهدة أو اعتماد على التجارب الحسية ، ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى طبيعة الموضوع التي تعالجه الفلسفة ، فموضوعها بالأجمال : هو ما وراء الطبيعة وهو عالم لا سبيل إلى دراسته بالحس ، فلما اتجه الباحثون في عهد النهضة إلى الطبيعة تغير الحال ، فموضوع دراستهم محسوس ، ويمكن أن يعتمد على الحس والتجارب في تصنيف ظواهره واستنباط خصائصه ونواميسها .

والواقع : أن الباحثين قد أدركوا هذه الحقيقة منذ بداية عضوا النهضة ، فلم يترددوا في استخدام الحس في تحقيق الفروض العامة أو استقرار الظواهر الطبيعية ليستبينوا بذلك على تصنيفها وتعرف نواميسها ، وهكذا ظهر أسلوب جديد للبحث العلمي استخدم في دراسة الطبيعة من جميع جوانبها ، فكشف عن الكثير من أسرارها ونواميسها في عالم الفلك والنبات والحيوان والمعادن ، ولم يكتب العلماء بالعين المجردة ، فعمدوا منذ الأيام الأولى في تاريخ النهضة إلى اختراع المجهر واستخدامه في دراسة الفلك ، وبهذا ظهرت دراسات جديدة ذات موضوع جديد وأسلوب جديد ، فموضوعها الطبيعة ، وأسلوبها الملاحظة الحسية والباطنية وشفق الناس بها وزادهم بها ولو عا نجاحها في الكشف عن نواميس طبيعة صادقة أمكن استخدامها في الحياة العملية من إنتاج وعواصلات وإضاءة ، وغير ذلك .

وهذه الدراسات الجديدة هي التي ندعوها باسم العلم .

وقد قدر لهذا المولود أن ينمو ويتوسع ويسيطر على حياتنا المصرية وقد رافق ظهوره ظهور نوع جديد من الحياة فإن الناس لم يكتفوا بالإقبال على الطبيعة كوضوع للدراسة ، بل تغيرت نظرتهم إليها ، فحلت محل نظرة الزهد فيها والعزوف عنها نظرة أخرى جديدة ، فبدأ الناس يشعرون بجمال الطبيعة ويستسيغون لذاتها من طعام وشراب وزينة وقصور ، ثم لم يلبثوا أن قبلوا الحياة الطبيعية ، ورجعوا فيها ، وتنافسوا في المزيد منها ، وقد ألقى هذا كله ظلاً ثقيلاً على عالم ما وراء الطبيعة كوضوع للدراسة الفكرية ، وهدف للأطماع الإنسانية .

ولكن الفلسفة لم تلبث أن عادت إلى الظهور ، وليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة ، فمعرفة حقيقة هذا الوجود ، حاجة من الحاجات الخالدة للنفس الإنسانية .

وقد كان الناس يعتمدون على العقائد الدينية في معرفة الكون . أما الآن وقد انتقلنا إلى عصر التفكير الحر ، فليس في مقدور العقائد الدينية وحدها أن ترضى تلك العقول المدربة على النظر العقلي والبحث الفكري المستقل . ومن ثم كان طبيعياً : أن يتقدم العقل الآن كما تقدم في عهد طاليس لمواجهة المعضلة الكونية وحلها بالبحث والنظر كما فعل في عهد طاليس ، والتاريخ كما يقولون يجدد نفسه ، وقد كانت الظروف في ذلك الحين مهيأة لهذا الحادث ، فقد درست فلسفة أفلاطون وأرسطو من جديد دراسة قوية ، فأعدت العقول للنظر الفلسفي الصحيح ، فلا يروعنا إذاً أن تظهر الفلسفة الحديثة كالمظهر العلم الحديث ، وكما بدأ العلم الحديث بثورة ضد علم الطبيعة الأرسطي والعلوم الطبيعية اليونانية بوجه عام وضد أسلوب البحث فيها ، كذلك بدأت الفلسفة

لحديثه بثورة عنيفة ضد الفلسفة القديمة ، وبخاصة فلسفة أرسطو ، وبحث
دقيق عن أسلوب جديد للدراسات الفلسفية .

واعلم ديكرت أبرز الشخصيات النائرة كما أنه في الواقع واضع أسس الفلسفة
لحديثه وأسلوب البحث الفلسفي الجديد .

وقد تناولت الفلسفة الحديثة في بدايتها نظرية الوجود ، ولكن شعب
البحث لم تلبث أن تعددت ، فتناول الفلاسفة دراسة النفس البشرية ، ودراسة
الأخلاق ، ودراسة نظام الدولة ، ودراسة طرق المعرفة وأساليبها ، فظهرت
بذلك نظريات الوجود والمعرفة وأصول المنطق ونواميس الحياة النفسية في صورتها
الفلسفية ونظريات التربية .

تحديد موضوعات الفلسفة

١ - الوجود بين العلم والفلسفة :

الكون هو الموضوع الذي شغل ولا يزال يشغل العقل البشرى منذ ظهور الإنسان فوق هذه البسيطة إلى يوم تطوى الأرض ومن عليها . فهو الذي أثار ثائرة العقول في كل العصور وهو الذي تدور حوله منذ بداية العلم والفلسفة أفكار المفكرين تحاول أن تتعرف حقيقته وتسبر غوره وتصل إلى المكنون من أسراره ونواميسه ، ولكن الكون واسع فسيح مترام في الزمان والمكان إلى غير حد واضح أو نهاية معروفة ، وهو من ناحية أخرى متعددة الصفات والخواص ومن ثم كان ميدان البحث فيه متسما لصنوف الباحثين . فهناك المادة في صورها المختلفة تعرض أمامنا مجالا فسيحا متنوعا يمكن أن تستهوى كل ناحية من نواحيه طائفة خاصة من طوائف الباحثين . هناك المادة الجامدة والمادة الحية في صورتها العامتين من نبات وحيوان ، ومن الممكن أن يستميل كل قسم من هذه الأقسام عددا من المشغوفين بالعلم والمعرفة . والواقع أن هذا قد حدث فعلا فقد توفرت طائفة على دراسة المادة غير الحية فنشأ من ذلك علم الكيمياء وعلم الطبيعة كما توفرت طوائف أخرى على دراسة النبات والحيوان فنشأ علم النبات والعلوم التي تدور حول الحيوان كعلم التشريح وعلم الحيوان نفسه .

وهناك جزء خاص من المادة يستوقف النظر ، وهو ذلك النظام الشمسي أو النظم الفلكية المنبثقة في هذا الفضاء المترامي الأطراف تستبي العقول بجلاها وسهوها ، وقد اجتذبت منذ عصور متوغلة في القدم عددا غير قليل من جبهة الباحثين فوقفوا على دراستها جهودهم .

وهناك العقل البشرى وظواهره المختلفة تقدم ميدانا فسيحا حافلا بضروب الأعمال التي تحتاج إلى الدرس الطويل . وقد انصرف إليها كما انصرف إلى غيرها نظر الباحثين ينقبون عن أسرارها ويتمسسون الخفي من نواميسها . ولم تقف نزعة البحث عند دراسة هذه الحقائق المائلة للحس الظاهر أو الملاحظة الداخلية بل جاورتها إلى بعض الصفات الكونية المجردة واتخذت منها موضوعا جديداً للدراسة :

فعالم المادة مثالا يبدو ممتداً في اتجاهات ثلاثة والامتداد حقيقة واقعة تتصل بالأجسام المختلفة فهي كلها من نبات وحيوان وجماد تمتد في الأبعاد الثلاثة فضلا عن خصائصها الأخرى التي يدرسها علم النبات والتشريح والطبيعة والكيمياء فهل يمكن أن نجد الامتداد من تلك الأجسام المختلفة ونستخلصه منها كحقيقة مفردة قائمة بذاتها ثم نتخذ منه موضوعا لدراسة خاصة فإن الامتداد يأخذ أشكالا مختلفة منها أشكال منتظمة كالثلث والمربع والمكعب مثلا وأشكالا أخرى كثيرة غير منتظمة . أفليس من الممكن أن تنصدي لهذه الأشكال المنتظمة فنعرف طبيعتها وخصائصها العامة بطريقة علمية . والواقع أن هذا هو أحد الاتجاهات التي اتخذتها الدراسات العلمية فعلا فقد انقطعت طائفة من العلماء لدراسة الامتداد وأشكاله المنتظمة ، فكان من ذلك علم الهندسة .

وهكذا لم يقتصر البحث في الكون على دراسة الأشياء التي تقع تحت الحس بل تناول أيضاً دراسة صفاتها العامة ، فجردت مما يلبسها وتلابسه من الأشياء وصارت موضوع بحوث علمية دقيقة .

هذه إذا دراسات تختلف موضوعاتها ، لكنها تنفق إلى حد بعيد في طبيعتها فكلها عمليات تفكير تسير في صورتها العامة على سنن واحدة لا يكاد يختلف .

فهي جميعاً ترمى إلى أهداف واحدة ، فكلها ينتجس إلى الظواهر الكونية ، في موضوع خاص فيصنفها و يدرس طبيعتها كل نوع منها متحرراً الكشفت عن صورته العامة وخصائصه وعلله وأسبابه ، فعلماء النبات مثلاً يردون هذه النباتات المختلفة إلى عدد معين من الفصائل ، و يدرسون كل نوع على حدة ، ليعرفوا صورته العامة ثم يقتسمون خصائصه وآثاره وأسلوبه في حياته ، فيجتمع لهم من ذلك عدد من القوائم العلمية الهامة ، وكذلك يحددون الظروف التي تنمو فيها تلك الفصيلة ، كالمناطق الجغرافية ودرجة الحرارة الموسمية ونحو ذلك ، وبذلك يكشفون الستار عن عوامل حياته وأسباب نموه ، ولا ينسون غالباً دراسة المادة التي تتكون منها النبات بوجه عام ، و إذا استعرتنا لغة أرسطو الواضحة الدقيقة لتحديد هذه الأهداف ، استطعنا أن نقول أنهم في منطقة النبات من عالم الطبيعة يبحثون عن الأسباب الأساسية المعروفة ، يبحثون عن السبب المادي ، وهو المادة الحية التي يتكون منها النبات ، وعن السبب الصوري ، وهو الصورة الخاصة لكل فصيلة من فصائل النبات ، وكذلك يبحثون عن العلة الفاعلة في حياته ونموه كموامل التربة والجو مثلاً .

وكذلك الحال في علم كعلم الكيمياء ، فهو يبحث عن الأسباب الأساسية للمركبات الكيماوية فيبحث عن سببها المادي في العناصر الكيمائية المعروفة ، وعن السبب الصوري لكل نوع منها ، فيحلل الماء إلى عنصريه المعروفين ، والنسبة الضرورية بينهما ، وهلم جراً .

وهذه العلوم المختلفة تزاو عملها في دوائر محدودة من ناحيتين : من ناحية الامتداد ، ومن ناحية العمق ، فكل علم من هذه العلوم يقتصر من الوجهة على

ناحية خاصة لا يجاوزها إلى سواها ، وليس بينها علم واحد حاول أو يحاول أن يدرس الوجود كله ، والأمر كذلك من ناحية العمق ، فكل علم منها يتجه إلى الكشف عن الأسباب القريبة للظواهر الطبيعية التي يدرسها ، ويقف في بحثه عند هذا الحد ، ولا يتوغل فيما وراءه .

فعلماء النبات مثلاً يقتصرون في دراستهم من هذا الكون الفسيح على النبات وحده ، ويتركون المعادن والحيوان والعقل البشرى والأفلاك السماوية ، وغير ذلك من موضوعات الدراسة العالمية ، وهذا التخصص يفيدهم فهو يعينهم على التوسع في دراسة موضوعهم الخاص ، وتتبع الفساض من نواحيه ، والخفي المحتجب عن أسرارها ، ولكنهم يدفعون بمن ذلك غالباً ، فتراهم لا يكادون يعرفون شيئاً من الدراسات الأخرى كعلم الطبيعة والكيمياء والمعادن والطب والفلك ونحو ذلك . التخصص إذا استيعاب ، ولكن مع ضيق في الأفق ، والعلماء بوجه عام يتخصصون ، فيتوسعون في موضوعهم الخاص ، ولكنهم يحتبسون فيه ، فلا يكادون يرون سواه .

وأهم من ذلك كله أنهم في احتباسهم داخل دائرتهم الضيقة لا يشهدون إلا ناحية خاصة من الكون ، ولا يرون الكون كله ، ومن ثم تخفى عليهم طبيعته وتفوتهم أسرارها ونظمه العامة ، فالعالم قد يعرف فصائل الحيوان وخصائصها مثلاً إذا تخصص في علم الحيوان ، ولكنه إذا اقتصر على هذا الموضوع فإنه لن يعرف طبيعة الوجود ونظمه العامة ، ويصبح ولا فلسفة له عن الكون الذي يحيا ويموت فيه ويتأثر بنظمه ونواحيه الخالدة .

والعالم أيضاً لا يتعمق في بحثه إلا إلى حد ، ولا يذهب إلى العمق الذي يذهب إليه الفيلسوف ، مثلاً علماء النبات في دراستهم لموضوعهم الخاص يدرسون

صور النباتات المختلفة ليتعرفوا طبيعة فصيلة القطن ، وفصيلة الأرز ، ولكن هناك صورة عامة تشمل كل هذه الفصائل ، وهي الحياة ، ففصيلة القطن أو الأرز صورة خاصة من صورة الحياة التي تتنوع فتأخذ صوراً شتى كصورة الأرز والقطن ونحوها والمتبع ألا يجاوز العالم في دراسته تلك الصور الخاصة التي يستطيع أن يدرسها بأسلوبه الخاص أسلوب الملاحظة والتجربة ، وألا يتعرض لبحث طبيعة الحياة وكيف تنوعت صورها في النبات ، ثم ترقى إلى حياة الحيوان والإنسان .

وهو يدرس القوى الطبيعية التي تؤثر في حياة الفصائل النباتية المختلفة من حرارة ورطوبة مثلاً ، ولكنه لا يمضي في بحثه إلى أبعد من ذلك ، فلا يحاول أن يرجع بهذه القوى الطبيعية إلى قوة كونية عامة كالإله الذي يحرك هذا الوجود كله ليسير كل كائن فيه إلى كماله النوعي .

وإذا اتجهت جهودهم إلى دراسة مادة النبات ، لم يجاوزوا مادته الخاصة ، وهي المادة الحية التي تتكون منها النباتات على اختلاف أنواعها ، ولم يذهبوا إلى أبعد من هذا ، فلا يدرسون طبيعة المادة العامة التي يتكون منها النبات والحيوان والجماد ، ولا يعدون مثل هذه الدراسة داخلة في نطاق عملهم .

وموجز القول أن علماء النبات في دراستهم لموضوعهم يدرسون السبب المادي والسبب الفاعل والسبب الصوري ، ولكنهم يطلبون الأسباب القريبة دون البعيدة ، فبدلاً من دراسة طبيعة المادة العامة المشتركة بين المعادن والفيازات والنبات والحيوان — المادة في ذاتها — يدرسون نوعاً خاصاً منها ، وهو مادة النبات فقط ، وبدلاً من أن يدرسوا الطاقة العامة ، أو السبب الأعلى المحرك لكل ما في الكون ، يدرسون الأسباب القريبة المؤثرة في حياة النبات كالحرارة والرطوبة بدرجاتها المختلفة .

ويجب أن يكون معروفاً أن هناك أسباباً قريبة وأخرى بعيدة ، فالأسباب القريبة بالنسبة للنبات ، هي المادة الحية ، والصور المألوفة الكثيرة التي تلبسها هذه المادة والعوامل الطبيعية المعروفة التي تؤثر في حياتها ، ولكن هناك أسباب عالية بعيدة وراء هذه الأسباب الخاصة القريبة ، فهناك المادة بوجه عام ، وصورة الحياة بوجه عام ، ومصدر الحركة الأعلى في هذا الوجود ، وهذه هي الأسباب البعيدة لا يدرسها العلم ولا يتعرض لها لأنه يقتصر في دراسته على الأسباب القريبة وحدها ، ومن ثم كان من الضروري أن توجد دراسة خاصة لها .

والأسباب القريبة قد تفسر لنا المناطق الكونية المختلفة ، فكل مجموعة من هذه الأسباب تفسر منطقة خاصة من مناطق الكون ولكنها لا تستطيع أن تفسر منطقة أخرى أو تفسر الكون كله .

بل الحق أن الأسباب القريبة لا يمكن أن تفسر شيئاً ما تفسيراً كاملاً فلن يبرح الخفاء ويزول الغموض وتتكشف الحقيقة ما دامت الأسباب العمياء مجهولة غير معروفة ، وإنما تتم المعرفة إذا جاوزنا الأسباب القريبة ، وذهبنا في البحث إلى ما وراءها من أسباب بعيدة ، والعلم لا يستطيع ذلك ، فمن المحتوم عليه أن يقف عند حد محدود ، وألا يجاوز السطح الظاهر المكشوف من هذا الوجود .

لا تذهب العلوم إذاً إلى الأعماق بل تقف عند السطح أو الظواهر ، ومن ثم يعجز كل علم عن أن يقدم لنا بياناً كافياً حتى عن موضوع دراسته فلا سبيل له إلى ذلك ما دامت الأعماق مخبوءة عنه وطرقها موصدة في وجهه .

وإذا كان كل علم على حدة عاجزاً عن تفسير موضوعه تفسيراً كاملاً فهو عن تفسير الكون كله أعجز بل أن العلوم كلها مجتمعة لا تستطيع ذلك ، فقد تستطيع

مجموعة العلوم أن تفسر مناطق الكون تفسيراً محدوداً مفككاً ، فمن درس العلوم جميعها استطاع أن يفهم الكون ، ولكن كمنطق متفرقة لا كوحدة متماسكة الأجزاء ومعنى ذلك واضح معناه ان العلوم جميعاً لا ترفع الفروض عن الكون ولا ترضى النفس البشرية المتطلعة إلى معرفته كوحدة متكاملة تنبث فيها جميعاً مادة واحدة وتحركها قوة واحدة تسير بها نحو صور عامة ولا بد للمعرفة الكاملة من الذهاب إلى الأعماق والوصول إلى الأسباب العليا .

لا بد لنا إذاً بعد العلم من دراسة أخرى إذ لا غنى لنا بمد أن تؤدي العلوم مهمتها الطبيعية كل في دائرته الخاصة من أن نتساءل ماهي المادة العامة المشتركة بين كل هذع الظواهر ، وما هي الطلاقة العامة السارية فيها ، ومن أين جاءت وما هي تلك الصور العامة المشتركة بين أنواع الكائنات الحية والتي تسميها باسم الحياة وكيف تنوعت أنواعها وترقت من بسيط إلى مركب ، وهل هي في ذلك تسير نحو هدف وهل وراء هذه الحركة الكونية مصدر يبشها في الكون فيخلق هذه الصورة التي تتطور وترقى من حال إلى حال أعلى ، ثم ماذا وراء ظواهر الحس والتفكير والسريرة والتردد والغضب والرضا . هل وراءها كائن ذو وجود ذاتي متقل . هو الذي يغضب ويرضى ويحس ويفكر ، وما هي طبيعته وما مصيره ، وهل للعقل حقيقة صلة بجسمه وما هو نوع تلك العلاقة . وكل هذه أسئلة لا جواب للعلم عنها لأنها تتعلق بحقائق لا يستطيع العلم دراستها لبعدها عن متناول الحواس وإنما يدرسها العقل مستقلاً عن الحس ومستغنياً عن معونته ، والواقع أن هذه الحقائق موضوع قائم بنفسه مغاير للعلم الحسي في ذاته وصفاته ، موضوع دراسة خاصة تعتمد على التفكير البحت الذي لا يستخدم ملاحظة ظاهرة أو باطنة وهذه الدراسة تسد النقص الذي لم استطع العلم أن يسده وتمكن العقل من معرفة حقائق الكون

العليا وأسبابه البعيدة المحجوبة عن العلم والعلماء .
إلى جانب الطبيعة إذا يوجد موضوع مختلف عنها يحتاج إلى دراسة خاصة
بأسلوب غير الأسلوب الذي تستخدمه العلوم الطبيعية في دراسة الطبيعة ، وهذا
الموضوع هو الحقائق الكونية العليا في صلاتها العامة . وقد تجرد لهذه الدراسة
عدد غير قليل من العقول البشرية الكبيرة ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن أول
ما شغل به المفكرون هو هذا الموضوع نفسه ، فطاليس قائد النهضة الفكرية العالمية
لم يتصد للدراسة النبات والحيوان ونحو ذلك بل كانت مهمته الأولى أن يدرس
الكون في جهلته فيصل إلى حقائقه وأسبابه العليا ، وكذلك فمسل من جاء بعده
من تلاميذه وتلاميذهم فقد حاول الجميع رت الكون إلى أسبابه العليا المادية
والفاعلة والصورية فهو مرة ماء يأخذ صورة الأرض والهواء والنار تحت تأثير
عامل الحياة المستكنة في مادته الأولى ، وثانيه : هواء يتحول بالكائنات إلى ماء
فارض و بالتخلخل إلى نار وهلم جرا . ثم يجيء أفلاطون فاذا العالم ليس مادة فقط
تأخذ صوراً متعددة ولكنه مادة وصور وعقول وإله يطبع الصور في المادة ويصل
العقول بالأجسام .

ثم تمر قرون ويجيء ديكارت في مطلع فجر الفلسفة الحديثة فاذا الكون
عنصران أساسيان هما العقل المفكر والمادة الممتدة و مجتمعان في الإنسان
فيتفاعلان ، ولكنهما يستمدان وجودهما في كل لحظة بل في كل ثانية من
إله علي .

وهكذا أتجه الفلاسفة منذ أقدم العصور إلى دراسة أسباب الكون العليا
يحاولون تحديدها و بيان الصلات القائمة بينها وقد دعيت هذه الدراسة منذ عهد
أرسطو بما وراء الطبيعة .

٣ — الأخلاق والجمال

وليست فلسفة ما وراء الطبيعة أو نظرية الوجود هي كل ما هنالك فالفلسفة أوسع مجالا من ذلك فهي كما سبق تنظر إلى الكون كوحدة ولكنها تنظر إليه من نواح متعددة فتري فيه صفات متعددة وإذ ذلك تسكف على دراستها . فتحدد معانيها ونصيب عناصر الموجودات من كل منها . فالكون يتصف بالوجود ولكن ما معنى الوجود وما هو الموجود منه حقا . هل الوجود هو الطبيعة وما وراء الطبيعة وهل الموجود في دائرة الطبيعة هو المادة والعقل معا كما يلوح لنا . أم لا وجود لما وراء الطبيعة والموجود هو الطبيعة وحدها وهل تحتوى الطبيعة على المادة والحياة والعقل أم هي مجرد مادة . وبالإجمال فالفلسفة لا تكفي بالنظرة الأولى أو الشعور الأول حيث يبدو كل شيء مكتسبا بصفة الوجود ومتحليا بحليته بل ترى لزاما عليها أن تكشف عن الحقيقة فتميز الوجود حقا مما لا وجوده إلا في عالم الأوهام ولكن الكون كما يبدو لنا تحت صفة الوجود يبدو أيضا تحت صفات أخرى فن الأشياء ما يبدو حسنا ومنها ما يبدو قبيحا وحسبك أن تنظر إلى مثل السلوك العملي وقواعد النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لتري ذلك واضحا ووضوح الشمس في رابعة النهار فنحن في دائرة السلوك نرى الأعمال والصفات وقد انقسمت قسمين وبدت لنا تحت صفتين مختلفتين فالصدق والعفة والاعتدال صفات حسنة ، ظاهرة الحسن والكذب ، والشر ، والإفراط صفات قبيحة بينة القبح . والأمور كذلك في جو الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحكم الشعب والنظام الاشتراكي والزواج الموحد للطرفين نظم حسنة وضاعة الحسن أما الحكم الفردي المطلق ونظام الأثرة الاقتصادية والزواج المتعدد الأطراف قبيح قبيحا لا يحتاج إلى تدليل .

هناك إذاً حسن وقبح يسهان الصفات والأعمال والمؤسسات وهذه الصفات تلعب دوراً كبيراً في حياتنا الفردية والاجتماعية فنحن نشعر بأن من واجبتنا أن نعمل الأعمال المتصفة بالحسن ونحقق المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتسمة بهذا السمة . وحسبك أن تنظر إلى الجهود الإنسانية الجبارة التي بذلتها البشرية بسخاء في تأسيس المؤسسات السياسية التي أخذت حسناتها بمجامع الألباب كالنظام الديمقراطي مثلاً فقد بذلت الأمم جهوداً مفضية لتحقيق هذا النظام السياسي الفائق وكذلك الحال بالنسبة لسلوك فنحن نحاول جاهدين أن نحقق المثل الاخلاقية التي أجمع الناس على حسناتها في سلوكنا اليومي . فنحاول أن نستمسك بالصدق ونلتزم بجانب الاعتدال ولا نكتفي بذلك بل نهتم اهتماماً كبيراً بتدريب أبنائنا عليها منذ نعومتهم أظنارهم ولا سبب لذلك إلا أنها تبدو مكلفة بأكليل الحسن نحن إذاً نلمح في الوجود حسنا ونشعر بأن العمل الحسن واجب لأنه حسن . فالصدق حسن وواجب والاعتدال في الحياة الجسمية حسن وواجب وهلم جرا . ونحن ننزل على حكم هذه القواعد فنحاول أن نقوم بالواجب ونحقق الحسن ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . ويبدو هذا بوضوح حينما تظهر في الموقف عوامل قوية تدفعنا إلى إهمال الواجب . فقد يجهلنا صاحب المصلحة المادية في بعض المواطن على محاولة التخلص من واجب الصدق وتقرير الحقيقة . ففي مثل هذا الموقف يظهر الشعور بالواجب شعوراً واضحاً فنناضل في سبيل أداء واجبنا حتى نفتصر أو نخفق .

تصطبغ الأشياء والأعمال إذا بصفتين ، صبغة الحسن وصبغة الوجوب ، وتلعب هاتان الصفتان في حياتنا العمالية ونظامنا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي دوراً كبيراً . وهذه الظواهر الهامة تخلق موضوعاً جديداً للفلسفة . فإنه لا بد من البحث الدقيق عن الحقيقة في هذا المجال أيضاً . ويتضمن هذا البحث أموراً

أساسية قليلة العدد فلا بد أولاً من تحديد معنى الحسن تحديداً واضحاً يميزه عن كل ما عداه مما قد يلتبس به أحياناً . وتظهر ضرورة هذا البحث إذا تذكرنا أن الحسن الذي نوصف به المؤسسات والصفات والأعمال ليس من الصفات الحسية أو الواضحة . ولا بد أيضاً من تحديد معنى الوجوب لنتم لنا بذلك معرفة هاتين الصفتين الهامتين ولا متر لنا أيضاً من أن ندرس معضلة أخرى مرتبطة بالبحث السابق كل الارتباط وهي مسألة موضوعية الحسن والوجوب فقد نستطيع أن نحدد معنى الحسن مثلاً . ولكن يبقى بعد ذلك احتمال خطير قد يذهب بكل فائدة للبحث السابق : فمن المحتمل ألا يكون لهذه الصفة وجود في الأشياء والأعمال التي نصفها بها . من الممكن ألا يكون في الصدق صفة تسمى الحسن ولا في الاعتدال معنى يسمى الحسن . وأن تكون هذه الصفة وهما من الأوهام التي ليس لها حقيقة خارجية تطابقها أما البحث الثالث فبحث خطير من الناحية العملية الفردية والاجتماعية . وذلك أنه إذا تم لنا تحديد معنى الحسن وإثبات موضوعيته فقد بقي أن نحدد ضررب السلوك التي تتصف بالحسن والمؤسسات التي تتصف بالحسن وهلم جرا وهذا البحث هو الذي يقدم لنا المبادئ الحسنة التي يجب أن نلتزمها في سلوكنا الفردي والاجتماعي . وينتهي عادة إلى تقرير مبادئ عامة كحسن الصدق والاعتدال والنظام والديموقراطية والاشتراكي وهلم جرا .

وعلم الأخلاق في هذا البحث الأخير يقوم بمهمة مشابهة للمهمة التي تقوم بها العلوم الطبيعية . فالدراسات العلمية على اختلاف أنواعها تتحرى الكشف عن نواميس عامة غير أن العلوم الطبيعية تحاول العثور على النواميس الطبيعية التي يخضع لها الوجود فعلاً . فتصل إلى قانون تمدد الأجسام بالحرارة أو قانون الجاذبية ونحو ذلك . وكلها قوانين يخضع لها فعلاً عالم المادة ولا يستطيع

بحال أن يتمرد عليها أو يشق عصا طاعتها ، أما الأخلاق فتحاول أن تصل إلى قوانين للسلوك والنظام العام . تحاول في الواقع أن تتمر على أنواع السلوك وصور المؤسسات المنصرفة بالحسن والواجبة التنفيذ . وهي نواميس عامة كالنواميس الطبيعية فالتانون الذي يقرر أن الصدق حسن ناموس كوني صادق كالتانون الطبيعي الذي يقرر أن الأجسام تتمدد بالحرارة . غير أن قوانين الأخلاق لا تحكم السلوك الإنساني فعلا كما تحكم القوانين الطبيعية سلوك المادة فالأجسام تحت الحرارة لا بد أن تتمدد ، أما الإنسان فيستطيع أن يصدق وأن يكذب . ودهمة علم الأخلاق أن تمدد بالنبادئ التي تتصف بالحسن ليستطيع إن شاء أن يجعلها تحكم سلوكه كما تحكم القوانين الطبيعية سلوك المادة . وهذه الدراسة لا يمكن للعالم أن يقوم بها ، ويتضح سبب ذلك إذا تذكرنا بعض ما أشرنا إليه فيما سلف أكثر من مرة فأساس الأسلوب العلمي هو الملاحظة الحسية بوجه خاص ومن ثم كان في مقدور العالم أن يدرس الموضوعات التي يقع عليها الحس دون ما يعلو متناول الحواس ويخرج عن نطاقها . ودراسة الأخلاق كما ينضح مما سبق تدور حول كلياتي الحسن والوجوب بوجه خاص فهي تحاول أن تبين معناها ، وأن تحدد أنواع السلوك والنظم التي تتصف بهما . والحسن والوجوب صفتان غير حسيّتين . فمن ذا الذي يدرك بحاسة من الحواس حسن الصدق أو حسن الديمقراطية . وليس معنى ذلك أننا لا ندرك حسن الصدق والديموقراطية ، فهذه حقيقة ليس من السهل إنكارها ولكن معناها أن الحسن لا يدرك بالحس وإذا فلا يمكن أن يستخدم الأسلوب العلمي في الدراسة الأخلاقية للسلوك والمؤسسات . لا يمكن أن نستعرض نماذج من أنواع السلوك وننظر إليها لنرى بالعين حسنها أو قبحها ، ثم نقرر على أساس هذه الرؤية أن هذا النوع من السلوك حسن وذاك قبيح .

ولكننا على رغم ذلك ندرك الحسن والتبجح ونشعر بحسن الحسن وقبح التبجح غير أن هذا يتم بالعقل لا بالحس ، الحسن والوجوب إذا صفتما يدركهما العقل وهو لهذا السبب يستطيع أن يقوم بهذه الدراسة . يستطيع أن يحدد معنى الحسن والوجوب ويستطيع أن يفصل في أمر موضوعيتهما ، ويستطيع أيضاً أن يقرر القواعد الأخلاقية العامة . ومعنى هذا أنه إذا كان الاستقراء لا يصلح لدراسة هذا الموضوع فإن الأسلوب الاستنباطي صالح له .

الأخلاق إذا قسم من الدراسات العقلية الصرفة ، قسم هام من الفلسفة . وتلجأ الفلسفة في دراستها إلى الطريقة الاستنباطية فهي تحاول الوصول إلى قواعد عامة بديهية تقرر حسن مبادئ السلوك كالصدق والاعتدال مثلاً أو تحاول أن تصل إلى قاعدة عامة واحدة تقرر الحسن الذاتي لمبدأ عام واحد ثم تستنبط منه جميع المبادئ الأخلاقية الأخرى . فقد حاول بعض الفلاسفة أن يقرر أن الحسن الوحيد هو اللذة وأن يستنبط من ذلك حسن المبادئ الأخلاقية العامة المعروفة على أساس أنها جميعاً تؤدي إلى اللذة :

ونعود الآن إلى نظرة عامة تجمع شتات هذا البحث . فالفلسفة تدرس الكون تحت صفات متعددة فتدرسه تحت صفة الوجود وفي هذا البحث تحدد ما هو موجود حقاً وما ليس كذلك ، وتدرسه تحت صفة الحسن الأخلاقي وفي هذا البحث تحدد الحسن والواجب ، وما ليس حسناً ولا واجب .

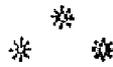
ولكنها لا تتقف عند هذا الحد فهي تدرسه تحت صفة أخرى هامة ، وهي الجمال ، والجمال كالحسن الأخلاقي صفة غير حسية ، ومن ثم كان لا بد من الاستعانة بالعقل في دراستها ، والاعتماد عليه في تحليلها وتحديد معناها ، وبيان الأشياء التي تتصف حقاً بالجمال ، وتمييزها مما لا يتصف به .

علم الجمال إذا قسم من الفلسفة ، بل هو قسم هام منها ، وهو جزر القول أن من أهم أقسام الفلسفة نظرية الوجود وعلم الأخلاق وعلم الجمال .
هذه هي الفلسفة ، وهذا هو ميدانها ، أما الفيلسوف فرجل ذو نزعة فريدة تستهويه من الكون النواحي السابقة الذكر أكثر مما يستهويه سواها . فهو يترك الطبيعة للعلماء يقتسمونها فيما بينهم ، ويتوفرون على دراستها ، ففر يق للحيوان وآخر للنبات ، وثالث للفلك ، وهلم جراً ، كل منهجاز إلى ناحيته الخاصة عا كف على دراستها مكب على ملاحظة ظواهرها بالعين المجردة ، أو بالمجهر ليستطيع على أساس من هذه الملاحظة أن يصنفها ويستخلص نواحيها ، وإنما يترك الفيلسوف الطبيعة مع وضوحها وانكشافها للحس وسهولة درسها لأنه يشعر بأنها القشرة السطحية للكون ، وبأن وراء هذا السطح تكمن حقائق الكون ، حقائقه الخالدة فيحن إلى معرفتها ويندفع إلى البحث عنها والتنقيب عن المستكن من أسرارها .
الفيلسوف إذا يترك ظاهر هذا الوجود ويتجه إلى أعماقه الخفية باحثاً عنها منقباً عن غوامضها وتستوقفه محاسن هذا الكون ، يستوقفه حسن الأفعال ، والنظم الإنسانية وجمال الطبيعة والفن ، فهو يتخير من الكون حقائقه الخالدة وصفاته النبيلة التي لا تقع عليها ولا يدركها حس ولا شعر بها إلا حينما تخفق لها القلوب خفقة الاحترام أو الإعجاب أو الابتهاج ، يتخيرها وينعطف إليها ويتفرد لها فيدرسها دراسة صبر وأناة .

الفصل السادس

ما هي الفلسفة

الآن وقد انتهينا من ذلك العرض التاريخي الوجيز لنماذج قليلة من تلك العملية التي عرفت باسم الفلسفة ، ومن تحليلها إلى عناصرها الأساسية ، يحق لنا أن نسأل في ضوء ذلك كله عن المعنى الدقيق لكلمة الفلسفة ، وأن نحاول رسم صورتها العامة ونحن مطمئنون إلى أن محاولتنا ستسير في طريق معبد إلى هدف واضح ، فما هي الفلسفة ؟ وما هي الفكرة الأساسية التي تشير إليها تلك الكلمة الساحرة ؟



أحس الإنسان منذ الساعة الأولى بأن الكون الذي يمش فيه غامض رهيب ، وشعر بوحدته فيه ، وضعفه إزاءه ، وأنه لا أمن له ولا طمأنينة إلا إذا عرف حقيقةه ، واهتدى إلى تلك القوة أو القوى الهائلة التي تتحكم فيه فتحرك السحاب والعواصف ، وتسقط الأمطار ، وتشير البحار ، وحدد صلتها به ، وكان خياله في البداية أقوى استعداداته العقلية فان فكره وذكائه لم يكن قد تم نضجه بعد ، فأخذ يتخيل عوامل كونية وراء الظواهر الطبيعية الكبرى ويسبغ عليه من نسج خياله صفات مختلفة ، وجعل منها آلهة يخشى غضبها ويسمى إلى رضاها ولما نضج عقله لم يلبث أن رأى سداجة هذا النوع من التفكير ، وقد كان لا يزال يحس بالرغبة الإنسانية القديمة في معرفة الوجود ، فواجه المعضلة مرة أخرى ،

ولكن بعقله وذكاؤه لا يخياله الطفلي القديم فأخذ يفترض في أصل الكون ونشوئه فروضا مختلفة ويستدل على صحة فروضه وتبريرها بحجج ودلائل متباينة وبهذا التطور في أساليب تفسير الكون وتأويله ظهرت الفلسفة بمعناها الصحيح .

الفلسفة إذاً رغبة في المعرفة وهي ككل رغبة في المعرفة الذاتية تستعين على إدراك غايتها بعملية التفكير ولكنها رغبة في معرفة خاصة فهي رغبة في معرفة الكون كله ولكن كوحدة مترابطة لا كمناطق متعددة متفرقة فالفيلسوف لا يريد أن يعرف عالم النبات أو عالم الأفلاك أو عالم المعادن كلا على حدة ولا يرضيه أن يعرف هذه العوالم جميعا ولكنه يريد أن يعرف نظام الكون العام الذي يبدأ من مبدأ أو من مبادئ قليلة لينبث في جميع أنحاء الوجود وشعابه فقد يقدر إن الطبيعة هي الكون وأن مادتها الأولى هي الماء وأن هذا الماء يتحول من ناحية إلى أرض وحيوان ونبات ومن الناحية الأخرى إلى هواء فنار وينتهي أن هذا التحول نتيجة صفة من صفات المادة وخاصة من خواصها وهي الحياة الذاتية فيصل بهذا إلى تحديد الخطوط العامة لنشأة الكون وتصوير نظامه الجامع أما حقيقة المعادن وأنواعها وتركيب كل نوع منها أو فصائل النبات والفروق بينها في التركيب والسلوك فهو من التفاصيل التي لا يشغل بها الفيلسوف نفسه وإنما يتركها للعلم .

وقد يحاول أن يفسر الطبيعة دون أن يفترض مقدما أنها الكون كله فيتنسغ أمامه أفق البحث وينتهي به الأمر إلى كون فسيح مترامي الأطراف فمثلا قد يفترض أن الطبيعة مادة وصور ويشعر بأن المادة والصور حقيقتان متباينتان وأن ائتلاف المادة والصور حادث لا يمكن أن يكون قد تم وحده فيفترض وجود إله ، ثم يصف الإله فينزعه عن المادة ولواحقها وعن الحلول في الزمان

والمكان ، فاذا بنا أمام كون كبير فيه الطبيعة ، وفيه ما وراء الطبيعة ، ولكنه في كل من الخالين يكون قد وصل إلى الهدف الذي يحاوله ، وهو معرفة الكون كله في صورته العامة .

وهو إذ يحاول معرفة الوجود يسلك إلى المعرفة سبيلا خاصا ، وهو التفكير ، فيفترض الفروض ويحاول إثباتها كما يفعل كل العلماء ، ولكنه هنا يقوم بعمله هذا بطريقة خاصة تفرضها عليه طبيعة المادة التي يعالجها ، فالعالم الحديث الذي يدرس النبات أو الحيوان أو المعادن يعالج مادة يمكن أن يشاهدها ولا يتردد أن يتخذ من المشاهدة أساسا لدراسته ، فهو يدعها تهتف في نفسه بأنواع الفروض العلمية ، وهو أيضا يتخذ من ملاحظاته الحسية أو تجاربه العملية وسيلة لإثبات تلك الفروض . أما الفيلسوف : فيختلف موقفه في هذا عن موقف العالم ، فهو يعلم أن فروضه تقع وراء عالم الحس ، وأنه لا يمكن إثباتها بالملاحظة الحسية ، أو التجارب الحسية ، ولا مناص من الاستمانة على دراستها بالاستنباط ، فيتخذ مثلا من الصور الظاهرة في المادة دليلا على أن هناك صانعا وراء الطبيعة ، أودع صور النبات والحيوان في المادة الكونية الفقل ، ويستدل بدقة هذا النظام على علمه وحكمته ، ولا يفكر على الإطلاق في تحقيق هذا الفرض بالملاحظة أو التجارب الحسية ، كما يفعل العلماء ، فاذا كانت الفلسفة تفكيرا فهي تفكير من نوع خاص .

والفلسفة في هذا كله تعالج الكون كوجود ، فهي تحدد الموجود حقا وتحاول أن تفرق في عناصر الكون بين المبدأ الأول الذي يصدر عنه ما سواه ، وبين الظواهر الطبيعية الصادرة عن المبادئ الكونية العليا ، ولكن الفلسفة لم تقصر

بمحوئها على معضلة الوجود ، بل عاجلت أيضا معضلات فكرية أخرى ،
واهل أهمها جميعا مسألة التقييم الإنسانية ، والذي أثار مشكلة القيم هو ما اكتشفه
الفلاسفة من أن الإنسان في حكمه على الأشياء لا يقتصر على الحكم عليها بالوجود
وعدمه ، بل يصفها أيضا بصفات أخرى ، كالخير والشر والجمال والقبح . هذا
النوع من الأحكام هو الذي أثار مسألة التقييم ، والفلسفة هي وحدها القادرة على
دراستها ، وهذه قضية تظهر صحتها إذا ما تذكرنا أن المسلم لا يدرس إلا ما يقع
في نطاق الملاحظة الحسية أو الباطنية ، وما يمكن تحقيقه بالتجارب العملية .
ومن الواضح : أننا لا نرى صفة الخير ولا صفة الشر ، فإذا رأينا عملاً خيراً
أو رجلاً شريفاً رأينا العمل أو الرجل ، ولسكننا لا نرى صفة الخير في العمل ولا
صفة الشر في الرجل ، لأنها صفات غير حسية ، والنتيجة الطبيعية أنه لا يمكننا
أن نستخدم الأسلوب العلمي القائم على الملاحظة والتجارب في تلك الدراسة ،
وكذلك الحال بالنسبة للجمال والقبح ، وإذن : فالفلسفة هي السبيل الوحيد
لدراسة هذه الموضوعات لأنها تستعين بالعقل ، والعقل يدرك هذه القيم ويستطيع
أن يدرسها

وقد اهتم الفلاسفة بدراسة الخير والشر والجمال والقبح ، وخاضوا في جميع
نواحي هذه المعضلات ، ففكروا في الموضوعية وحاولوا أن يتبينوا حقيقة
الموقف ، فمن الممكن أن يكون الناس مخدوعين فيما ينسبونهم إلى الأشياء من خير
وشر وجمال وقبح ، ومن الجائز أن لا يكون لهذه الصفات وجود في الكون ، وأن
تكون مجرد أوهام وخيالات ، ولهذا واجه الفلاسفة موضوعية القيم بشجاعة وصبر
وانتهى كثير منهم إلى الإيمان بموضوعيتها .

وكذلك حاول الفلاسفة تحديد معنى الخير والشر والجمال والقبح ، وبيان

الأشياء والأعمال التي تتصف بهذه الصفات ، والدور الذي يجب أن يلعبه الخير والشر والجمال والقيح في حياة الإنسان ، وقد اعتمد الفلاسفة في هذا كله على العقل فاستعانوا به على معرفة موضوعية القيم وتحديد طبيعتها ومهمتها في الحياة الإنسانية .

الفلسفة إذن هي تلك الرغبة الإنسانية الجارحة التي تتملك بعض النفوس المستوحشة في هذا الكون الغامض الفسيح فتدفعها إلى تعرف الوجود كله في جهلته لا في تفصيله وتعرف مكان الإنسان منه ومستقبله فيه وتمييزها إلى تمسح صفاته الروحية كالخير والشر والجمال والقيح وتحديد مكانها من الحياة الإنسانية وهي ككل رغبة في المعرفة تستمين بالتفكير ولكنه التفكير النظري لا التجريبي .

أما نتائجها ، فهي تلك النظريات الكثيرة في طبيعة الكون والقيم الإنسانية التي تعزى إلى أفلاطون وإرسطر ، وديكارت ، واسبينوزا ، وسواهم من كبار الفلاسفة وصفارهم ، ولكن الفلسفة ليست هي النتأج ، وإنما هي روح التفكير الحر وأسلوب البحث المستقيم ، وليس أضر على المشتغلين بالفلسفة من أن يخلطوا بين الأمرين فنتيجة هذا الخطأ الوقوع في التقليد الذي يسلم صاحبه إلى الجورود والقيم وركود الفكر .